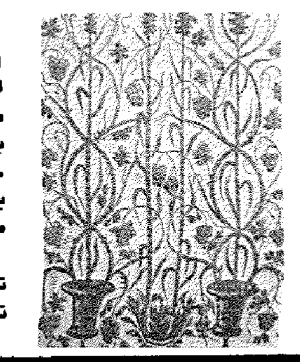
تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تعنى بالتاريخ العربي



□ كانت دمشق زاهرة منذ الألف الثالث قبل الميلاد، وفي عهد الأراميين، وهذا النحت من آثار ذلك العهد.

من كتاب: دمشق الشام. د. عفيف بهنسي



الغلاف الاول

□ تمثل هذه اللوحة زخرفاً من الزهور. فنلاحظ سيقاناً عمودية من الذرة البيضاء تخرج من بعض الأواني وبعض قيعان نبتة «الاكنثة» (Acanthe)، وهي محاطة بزخارف في شكل اغصان كروم محملة بثمارهلمتحف باردو.

من كتاب: الفسيفساء في تونس / دار سيراس للنشر — تونس.

● المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا ترد إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

العددان ١١١/١١٢ ● كانون الثاني ــ شباط ١٩٨٨

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

الانتاج : مطبعة المتوسط ش.م.م.

التوزيع : الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

البلد	الثمن	البلد	الثمن
لبنان	٧٥٠ ل.ل	سوريا	٣٥ ل.س
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الإشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان : ١٠ دولار
- في الوطن العربي للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي للأفراد ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- اشتراك تشجيعي ١٠٠٠ دولار
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب ٥٩٠٥ ــ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ــ تلفون ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT . LEBANON

Vol. 10. No. 111 / 112 ● Jan-Feb 1988

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الالقاب الصفات العلمية فقط ■

□ **صبحي المحمصاني ودراساته في الفقه الإسلامي وتاريخ التشريع**
د. رضوان السيد ٢

□ **العالم العربي وشمال افريقية في العصر اليوناني (من الاسكندر إلى اغسطوس)**
د. نقولا زيادة ١٢

□ **الزعامات المحلية في سورية (١٥٧٥ ــ ١٦٥٠)**
تأليف: د. عبد الرحيم أبو حسين
مراجعة: د. حسين سلمان سليمان ٢٢

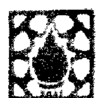
□ **الجيش العربي الإسلامي في عصر موقعة حطين ووسائل الإسناد الأخرى**
د. شوقي شعث ٤٤

□ أحداث أغفلها التاريخ:
نابليون الثالث ينتصر بلعبة البالييت وبسمارك يثأر باحتلال فرنسا
اعداد: بيار روبير لوكليرك
ترجمة: انعام الجندي ٥٦

□ **تاريخ السيارة وتأثيرها على الأدب والفن عموماً**
ايريخ بيتر ٦٢

□ **معاهدات**
كتابه (ص) بين المهاجرين والأنصار واليهود وهو دستور الدولة البلدية بالمدينة
شذا عدرة ٧٠

□ **رجال وافكار:**
بطليموس الثالث ٨٠



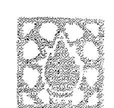


ودراساته في الفقه الإسلامي وتاريخ التشريع

د. رضوان السيد

I

يقول صبحي المحمصاني في تقديمه لكتاب[1]: (فلسفة التشريع في الإسلام)، وهو كتابه الأول في مجال دراساته في الفقه الإسلامي: «إن غايتي الأولى من هذا الكتاب أن ابيّض ما استطعت من الدفائن الصفراء، وأن أظهر منها ما تمكنت. ثم أن أضع ما استخرجه أمام ما يقابله من الآراء الحديثة موضحاً أوجه الوفاق وأوجُه الخلاف فيما بينها.. وأرجو أن أتوصل بذلك إلى إيضاح وجهة النظر الإسلامية في التشريع للأجانب وللمثقفين بثقافتهم إيضاحاً حقيقياً. وأرجو أن أتوصل إلى إزالة ما تركه بعض الناس في الأذهان من آثار التشويش والتدجيل. وقد كان من هؤلاء طائفة من المستشرقين ومن نحا نحوهم من المتطفلين وأشباههم.. وأرجو أن أتوصل أيضاً إلى تقريب الأسلوب القانوني الغربي إلى المطلعين على الشرع الإسلامي خصوصاً مجلة الأحكام العدلية...».



حدد المرحوم المحمصاني لنفسه إذاً أهدافاً أربعة هي غرض أعماله في مجال الفقه الإسلامي، وتاريخ التشريع: جلاء آراء واجتهادات وأصول الفقهاء والأصوليين المسلمين القدامى بلغة حديثة، وترتيب حديث، والمقارنة بين توجهات الفقهاء وأصولهم من جهة، والمدارس الفقهية الغربية وبخاصة الفرنسية والإنكليزية من جهة ثانية، وتقريب وجهات نظر الفقهاء المسلمين إلى المتثقفين بالثقافة الحديثة من العرب والأجانب، وأخيراً مجادلة المستشرقين والمتأثرين بهم فيما جنوه على الفقه الإسلامي من سوء عرض، وسوء فهم وإفهام. والواقع أنه لم يتتبع في مؤلفاته اللاحقة بل ولا في «فلسفة التشريع» هدفه الجدلي المعلن إذ لم يتعدّ الأمر حديثاً عارضاً عن إمكانية العلاقة بين الفقه الإسلامي والقانون الروماني، وهو موضوع محبب لدى قدامى المستشرقين. ثم الحديث في حواش قليلة عن سلبيات آراء بعض المستشرقين والمتأثرين بهم من زملائه اللبنانيين[3]. وفيما عدا ذلك فإنّ المحمصاني تابع هذه النزعة المدرسية الأولى التي ظهرت في «فلسفة التشريع» في كتابه الضخم الثاني في مجال دراسات التشريع الإسلامي، وهو المعنون باسم[4]: «النظرية العامة للموجبات والعقود في الشريعة الإسلامية، بحث مقارن في المذاهب المختلفة والقوانين الحديثة». ثم غلبت عليه النزعة المقارنة مع عدم التخلي عن المدرسية الدقيقة والملتزمة بالنص في كتبه في المرحلة الثانية: مقدمة في إحياء علوم الشريعة (١٩٦٢)، والقانون والعلاقات الدولية في الإسلام (١٩٧٢)، وأركان حقوق الإنسان، بحث مقارن في الشريعة الإسلامية والقوانين الحديثة (١٩٧٩). وتأتي المرحلة الثالثة من مراحل عمله في مجال دراسات التشريع فتتميز بنزعتين غلّابتين: نزعة نظرية فكرية مفلسفة بدت في كتابه المهم: الدعائم الخلقية للقوانين الشرعية (١٩٧٣)، ونزعة تأريخية تأسيسية ظهرت في كتبه الأخرى في سنوات عمله الأخيرة دون أن تغيّب النزعة الفلسفية تماماً، وهي: الأوزاعي (١٩٧٨)، والمجاهدون في الحق (١٩٧٩)، والمجتهدون في القضاء (١٩٨٠)، وتراث الخلفاء الراشدين في الفقه والقضاء (١٩٨٤). وهكذا فإنه فيما عدا الهدف الجدلي الذي لم يتابعه الدكتور المحمصاني رغم إعلانه ذلك في مقدمة الكتاب الأول، بقي الرجل أميناً للهدفين الأساسيين الآخرين: استكشاف تاريخ التشريع الإسلامي، وأصول التفكير الفقهي عند المسلمين. وتقديمه للمعاصرين من المسلمين والأجانب محدِّثاً عن طريق المقارنة بالقوانين الأوروبية، وبتنظيم حديث يتأثر «مجلة الأحكام العدلية»[5] لكنه يتجاوزها عندما يرى ذلك ضرورياً.

II

أما تقسيم أعماله في مجال دراسات الفقه الإسلامي إلى ثلاث مراحل فيقوم على ملاحظة تطور تقنيات البحث لديه، وتطور موضوعات الدراسة. فالملاحظ في كتابيه الأولين فلسفة التشريع، والموجبات والعقود رجوعه لكتب معينة

من مصـادر كل مـذهب من المذاهب السنيـة الأربعة، مع بعض الدراسات الغربية الحديثة، وبحوث الأساتذة المصريين في الموضوعات التي يدرسها. ويتزايد عدد المصادر الفقهية القديمة في دراسات المرحلتين الثانية والثالثة حتى يبلغ في المجتهدون في القضاء، وتراث الخلفاء الراشدين المئات، ولا يعود الأمر مقصوراً عـلى المصادر الفقهية بل تستخدم كتب السنة النبوية، وكتب التـاريخ. أمـا المراجـع والدراسـات الحـديثـة فتستخدم بكثرة نسبياً في المرحلة الثانية من أجل المقـارنة التي غلبت عـلى مؤلفـاتـه فيهـا. ثم لا تستخدم على الإطلاق تقريباً في المرحلة الثالثة رغم أن هناك مسوغات منهجية لذلك. فالمعروف أنه في هذه المرحلة درس نشوء الفقه الإسلامي في الحقبة السابقة على الشافعي (٢٠٤ هـ.) أي انه تناول آراء الصحابة والتابعين وتابعهم في المسائل الفقهية بين وفاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ومنتصف القرن الثاني الهجري. ومرحلة النشوء هذه بالغة الغموض والتعقيد ليس في مجال الفقه وتاريخه فقط، بل في سائر مجالات العلوم الإسـلامية الأخـرى. وفي مجال الفقـه بالذات هناك دراسات قليلة عن هذه المـرحلة أهمها دراسات جوزف شاخت، ومحمد أبو زهرة، ومحمد يوسف موسى، ومحمد البلقاجي، ومحمد علي السايس. وليس هناك تفسير لتجاهل الأستاذ المحمصـاني لهذه البحـوث إلاّ تمكنه المنقـطع النظير في معرفة المصادر، ورجوعه إليها مباشرة بحيث رأى أنه في غنى عن العودة إلى بحوث المحدثين التي لم تستند إلى هذه الكثرة الكاثرة من المصادر كما استند هو. ومع ذلك فالملاحظ أن عدة كتب فقهية مهمة رافقت الأستاذ المحمصاني في سائر مـراحل بحثـه السالفـة الذكر وهي: الاعتصام والموافقات للشاطبـي المالكي، وإعلام الموقعين والطرق الحكمية لابن القيم الجوزيـة الحنبلي، وبدائع الصنائع في ترتيب الشـرائع للكاساني الحنفي. فالتطور في استعمال المصادر والمراجع في أعمال المحمصاني كان تطوراً في التركيز على المصادر دون الدراسات الحديثة، وفي الإكثار من استخدام كل المصادر المتاحة مع وجود عدة مصادر كانت عمدته، وكان يرجع إليها دائماً. أما بطريقة الدراسة فإنّ المحمصاني بدأ في نطاقها مدرسياً متشدداً لا يكاد يفارق النُص شـأن علماء القـانون ذوي الصلة المبـاشـرة بالقضاء. وقد نوّه بذلك في مقدّمة كتابيه الأولين. لقد قال إنه يعتمد المراجع الصحيحة الموثوق بهـا... وإنه يعـرض ما تـوصلت إليه مصادر دون أن يذهب مذهباً معيناً أو حتى دون أن يفاضل بين رأي وآخر[٦]. ولم يكن الأستاذ المحمصاني وقتها على صلة بالقضاء فقط فيما يبدو، بل كان أيضاً استاذاً جامعياً يهمه أن يعرض على تلامذته معلومات موثوقة ومنخولة بطريقة مفهومة، فلعل هذا يعلّل بعض الشيء اعـراضه عن الاستنتـاجات البعيـدة المهوى، والاجتهـادات التي قد لا تـؤيدهـا النصـوص بطريقة مباشرة. على أنه بدأ بداية طيبة عندما كتب أول ما كتب في أصول الفقه تحت اسم «فلسفة التشريع»، وفي هذا الكتاب بالذات فصل في الاجتهاد وشروطه، وفصل آخر في القواعد الكلية مفيد جداً في الاستنباط. على ان المدرسية في التأليف، والتركيب، ليست أمراً سلبياً ما دام المَعْنيُّ بهـا عرض الأمـر استناداً لنصـوصه الأصلية، وبالطريقة التي فهمها عليـه علماؤه الموثوقون. وقد بدت إيجابيات هذه الطريقة في التأليف في المرحلة الثـانية من مـراحل عمـل المحمصاني في مجال الفقـه المقارن. في هـذه المـرحلة وضعت كتابيـه في العلاقـات الدولية، وحقوق الإنسان، وكتابه الثالث في إحياء علوم الشريعة. ويذكرنا عنوان الكتاب الثالث بكتاب الإمام الغزالي (ـ ٥٠٥هـ) إحياء علوم الدين، وهو ما قصـده المؤلف إشـارة إلى ضروريـات الاجتهاد والتجديد والقيام في مجال التشريـع الإسلامي بما قام به الغزالي في مجال فلسفة الحياة الإسلامية والعقيدة الإسلامية. وتعدى الأمر العنوان الموصي أو المحرض إلى مضامين الكتاب نفسه فكانت محاضراته الأربعة الأولى التي ألقاها بتونس في الاجتهاد الفقهي واختلاف الفقهاء وتطور الأحكام الشرعية أو تغير الأحكام بتغير الزمان[٧]. والحق ان المقارنات التي عقدها المحمصاني في كتابيه الآخرين اقتضته حركية ما كان يمكن معها ألا تجاوز حرفية النص إلى مقتضاه أو إشاراته أو دلالاته الأخرى المعروفة عند الأصوليين، والتي سبق له أن شرحها في


أركان حقوق الإنسان
المبادئ الشرعية والقانونية
في الحجر والنفقات والمواريث والوصية
تأليف
المحامي صبحي محمصاني
الطبعة الثالثة
مزيدة ومنقحة
دار العلم للملايين

كتابه الأول في فلسفة التشريع، وفي كتابه الثاني في «النظرية العامة للموجبات والعقود». بيد أن عاملاً آخر غير المدرسية وغير الجدلية ظهر في مؤلفاته في المرحلة الوسطى من مراحل تأليفه فحال دون المضي في الاستنتاج المجدد والمكتشف إلى نهاياته، انه عامل التدين والورع لدى المؤلف. فالرجل مقتنع تماماً بأن وثيقة أو إعلان حقوق الإنسان الذي أعلن في الأمم المتحدة، والمبادىء والأعراف التي استقرت عليها العلاقات بين الأمم في أحوال السلم والحرب كما بدت في ميثاق الأمم المتحدة أيضاً، كل ذلك ذروة من ذرى ما بلغته إنسانية الإنسان وأخلاقياته الحضارية الحقيقة بالاتباع. ان ما يؤخذ على الغربيين (وقد ذكر منهم المحمصاني الرئيس الأميركي السابق كارتر)[8] هو الخلف بين القول أو الإعلانات المبدئية والعمل أو التصرف. أما المبادىء أو المواثيق نفسها فهي منجزات إنسانية رائعة. لذا فإن المقارنة بين المبادىء والتوجهات الإسلامية في مجالي حقوق الإنسان، والعلاقات الدولية، ينبغي أن تظهر المماثلة التي سبق إليها الإسلام بأكثر من ألف عام، بل والتفوق في بعض النواحي على المواثيق والإعلانات الحالية. ولذلك جرى أحياناً إهمال علاقة المبدأ أو الآية أو القاعدة الشرعية بالتصرفات أو التطبيقات في التاريخ الإسلامي، كما جرى أحياناً أخرى تأويل معنى الحرب والقتال والجهاد فقيل إنها استثناء وإنها دفاعية بظنّ الدفاع عن الإسلام أو عن حضاريته وسلميته[9]، وهذا على الرغم من أن سلم القيم في وقت فعالية مبادىء الحرب والسلم الإسلامية غيره الآن، بل غير ذلك السلْم الذي استندت إليه إعلانات ومواثيق الأمم المتحدة. لكنّ هذا النهج الورع والدفاعي لم يبتدعه الدكتور المحمصاني بل هو معروف منذ أيام جمال الدين ومحمد عبده. واختلاف العصر وطرائق التطبيق، وسلم القيم، كل ذلك لا ينفي على أية حال مشروعية المقارنة.

وتتميز المرحلة الثالثة من مراحل عمل الدكتور المحمصاني في مجال الفقه الإسلامي بغلبة النظرية والتأريخية عليها ففي بدايات هذه المرحلة يظهر كتابه «الدعائم الخلقية للقوانين الشرعية» الذي يظهر الإسلام كنهج حياة أو فلسفة حياة ليس مقصد التشريع فيها التجريم والعقوبة، بل الشمول الاجتماعي الأخلاقي الذي لا تحتل العقوبات فيه غير حيّز ضئيل، تجعل تطبيقها في أكثر الحالات متعذراً. أما الكتب الأخيرة فتعرض منجزات المشترعين الأوائل، وطرائقهم في حل المشكلات الطارئة، وذلك في عصور الصحابة والتابعين وتابعيهم وهي حقبة تمتد بين ٦٥٠م. و ٨٠٠م. على وجه التقريب. في هذه المرحلة يحس القارىء بتمكن الدكتور المحمصاني من موضوعه، وغياب المدرسية الحرفية والحوائل الشخصية الحائلة دون قود الأمور إلى نهاياتها. فقد قال في أحد المواطن ان معرفة الحقيقة هي مقتضى الإسلام[10]. وكما سبق أن قلت فإن هذه الحقب الأولى شديدة الغموض والتعقيد ويظهر في ذروتها الشافعي مكتملاً بشكل مفاجىء. والحق ان كتب الدكتور المحمصاني، وكتاب الدكتور محمد البلناجي عن المصطلح الفقهي في القرن الثاني الهجري جعلت تتبع نشوء الفقه الإسلامي خلال حقبته الأولى، وللمرة الأولى، ممكناً. فما كانت بحوث شاخت المستندة إلى الشافعي في الأساس، كافية في هذا المجال، وهذا فضلاً على المشكلات المنهجية التي أحاطت بها بسبب قصوره في فهم دور السنة، وعلاقتها بالتقاليد الفقهية المحلية[11].

III

أما من الناحية المنهجية فإن الدكتور المحمصاني اهتم في «الدعائم الخلقية» بعرض النظم الأخلاقية الشاملة استناداً إلى كُتّاب الأخلاقيات المسلمين وبخاصة ابن حزم ومسكويه والماوردي. لكنه لم يهتم بقراءة هذه المنظومات في سياقات نشوئها، وعناصرها وأمشاجها. فهناك عناصر أرسطية وأفلاطونية كثيرة خالطت هذه النظم وحالت دون فعاليتها في الواقع في كثير من الأحيان. أما هم المحمصاني فكان في هذا المجال تركيب النظم الأخلاقية المناظر أو المؤسس للقوانين الشرعية دونما تحليل منسق للعلاقات العضوية — إن كانت — بين المنظومتين الأخلاقية والفقهية ولو انه فعل ذلك خارج

القواعد الشرعية الكلية لتبين له ان المسألة تحكمها جدليات لها علاقات بدواخل كل من المنظومتين. وبدت آراء الصحابة والتابعين وتابعيهم اجتهادات قانونية «بحتة» ليس لها سياق اجتماعي أو أخلاقي أو تاريخي بحيث لا نعرف خصوصيتها التاريخية أحياناً إلا من معرفة اسم المنسوبة إليه من الصحابة أو التابعين أو تابعيهم[١٢]. وأرى ان لذلك سببين. **أولهما** طبيعة المصادر المتاحة للآراء الفقهية لهؤلاء وهي لا تفصّل ولا تعلّل ولا تذكر السياقات بل تكتفي بإيراد الفتوى أو القضاء مجردين. ثم نهج الأستاذ المحمصاني القائم على عرض السابقات القانونية فقهاً وقضاء وفتوى إيضاحاً للتطور القانوني اللاحق عن طريق المماثلة والمقاربة والمقارنة. أما كتابه عن الأوزاعي فقد كان له بالإضافة لذلك أهداف ثلاثة أخرى: هدف وطني تمثل في دفاع الأوزاعي عن أهل الذمة بجبل لبنان، وبلاد الشام بشكل عام. وهدف إنساني تمثل في رعاية الأوزاعي لحقوق الإنسان في ظروف الحرب من خلال فتاويه وما بقي من سيره. وهدف دفاعي جدلي فقد قال مستشرقون قدامى بغير ما دليل أن فقه الأوزاعي متأثر بالقانون الروماني، وقد أثبت الأستاذ المحمصاني دونما كثير جدل أنه لا علاقة بين المنظومتين.

IV

قال الدكتور المحمصاني في مقدمة كتابه[١٣]: «النظرية العامة للموجبات والعقود في الشريعة الإسلامية» إنّ الغاية من وضع الكتاب «استخلاص النظرية العامة للالتزام في الشريعة الإسلامية، ومقارنتها بالنظرية العامة المعروفة في القوانين المدنية العصرية». وهو يرى تبايناً بين النظرية الإسلامية في الالتزام ونظيرتها الغربية لقيام الأخيرة على «القانون الروماني»، لكن لأن الموضوع واحد فإن المقارنة ممكنة، وهذا فضلاً عن ان الاختلاف لا يصل إلى حد التناقض التام. ولأننا نريد هنا أن نعرض لبعض نواحي الأصالة والتأصيل في فكر الأستاذ المحمصاني الفقهي فإننا قد رأينا من استعراض مؤلفاته الفقهية كلها أن أصالته لا تكمن في المقارنة بين الفقهين فقد فعل ذلك مصريون وسوريون وعراقيون من قبل ومن بعد وفي نظرية العقد بالذات، كما في مسائل حقوق الإنسان والقانون الدولي. إن أصالته تكمن في المرحلة المدرسية من فكره في النزعة البنائية التي تميل إلى الفهم الشامل عن طريق المنظومات القانونية أو النظم القانونية المكتملة. والحق ان هذه النزعة رافقته طوال مراحل تأليفه كلها إذ كان يحاول دائماً رد الخاص إلى العام، والتفصيل إلى المبدأ، والتطبيق الجزئي إلى القاعدة الكلية. ففي مجال تعريف المال والمالية يلتزم المحمصاني بما ورد في «مجلة الأحكام العدلية» لكنه يعيد تنظيم المواد، ويؤلف بينها وبين بعض ما ورد في «مدونة جستنيان» فتبدو في صورة منظومة شاملة[١٤] يصح الاحتكام إليها حتى من جانب القضاة اليوم. وما قيل هنا عن موضوع المال والمالية يمكن قوله عن أشكال العقود، ومواضيعها وأسبابها، وأهلية المتعاقدين ومسائل الموجبات. ويبدو موضوع أصول الفقه أو كما سماه الأستاذ المحمصاني: فلسفة التشريع، مناسباً أكثر للتنظيم والتقعيد والتعميم. وقد تجاوز عمله في هذا المجال التنظيم والترتيب إلى إطلاق مصطلحات جديدة، وتعميمات جديدة مستفيداً من ثقافته القانونية الواسعة، وقدرته على المقارنة بين النظم القانونية المختلفة. ففي الباب الثالث من «فلسفة التشريع» تحدث المحمصاني عن «مصادر التشريع الإسلامية» بدلاً من «الأدلة الشرعية» دون أن يتخلى عن المصطلح القديم. ثم عدد الأدلة الشرعية الكلاسيكية مطلقاً عليها تسمية «مصادر التشريع الإسلامي» ليتحدث بعد ذلك عن «مصادر التشريع الخارجية» فيقعد لها رغم الاختلاف فيها وهي: تغير الأحكام، والحيل الشرعية، والتشريع الوضعي المباشر، والعرض والعادة، والشريعة الإسلامية والقانون الروماني. وأخيراً يأتي الباب الخامس[١٥] وهو حديث في «القواعد الكلية» موضوع الدكتور المحمصاني المحبب وهو يتناول فيه ثلاثة قواعد كلية فقط على سبيل التجربة: حكم الضرورة والحاجة (ويتضمن القواعد الفقهية الفرعية التالية: المشقة تجلب التيسير، والضرورات تبيح المحظورات وتقييداتها)، والقصد في الأفعال

(وتتضمن: الأمور بمقاصدها وتقييداتها ووجودها من مثل النية والظاهر، والحقيقة والمجاز، والتصريح والدلالة والمطلق والمقيد، وارتباط الكلام)، ومبادىء البينات (وتتضمن حديثاً طويلاً في مدلولات البينة وأقسامها). ولأن الكتاب بمجمله في المبادىء العامة للتشريع، وأدلته، وقواعده الكلية، فبالوسع أن نرى رجوعاً إليه في كل كتب الدكتور المحمصاني اللاحقة. وقد صار مقرراً جامعياً في لبنان وعدة بلدان عربية وإسلامية ولذلك طبع عدة طبعات كأكثر كتب الدكتور المحمصاني.

والمسألة الثانية التي تبدو أصيلة ومسيطرة في فكر الدكتور المحمصاني الفقهي الاقتناع بعقلانية الإنسان، وتطور هذه العقلانية في نطاق البشرية بشكل عام، بحيث تبدو القوانين والشرائع والأعراف والاجتهادات القانونية متقاربة أو متواصلة أو يمكن التوفيق بينها، إذ ترمي جميعاً إلى حفظ سلام الإنسان وسلامته في السياقين الفردي والاجتماعي. لذا فإن نزعة المقارنة التي بدت بوضوح في مؤلفاته في مرحلتها الثانية ترمي في العمق لا إلى إثبات مشاركة الفقه الإسلامي في القضايا الأساسية بحلول عملية فقط، بل إلى إبراز تواصل التجربة الإنسانية في النطاق القانوني أيضاً. ويبدو ذلك في عرض المحمصاني لمسائل حريات الشعوب، والحرية الشخصية الفردية، وحرية الفكر والعقيدة، وحرية الرأي والتعبير، وحرية الاجتماع ومشتقاته، وقضايا الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والمساواة أمام القانون[١٦]. ففي كل هذه الأمور وتفصيلاتها يورد المحمصاني نصوصاً من مواثيق الأمم المتحدة، والإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ثم يورد آيات وأحاديث وقواعد فقهية، ويذكر بدهيات الفقهاء الخمس التي ذكرها أول مرة في فلسفة التشريع تحت عنوان: الأهداف العامة للتشريع، وهي حق النفس (= الحياة) وحق الدين، وحق العقل، وحق العرض، وحق المال، ويفعل المحمصاني الشيء نفسه في مجال القانون الدولي إذ يورد في كل مسألة من مسائل السلم والحرب والدبلوماسية القوانين والأعراف الدولية، ثم يثني بذكر أقوال الفقهاء المسلمين، وممارسات خلفائهم وأمرائهم، فتبدو التجربة الإنسانية متصلة متسعة في كراهية الحرب، وإيثار السلم، والاتجاه الغلاب لرعاية إنسانية الإنسان في ظروف القتال والعدوان. وطبيعي أن يحس المحمصاني بالاعتزاز لتقدم الفقه الإسلامي واستبقائه في مجال رعاية حقوق الإنسان في السلم والحرب، لكن ذلك لا يخفي حقيقة أن التجربة الغربية وصلت من خلال وثيقة حقوق الإنسان إلى ما وصل إليه الإسلام في نظر المحمصاني، ويلقي هذا ضوءاً على وحدة التجربة الإنسانية حتى في جانب أعرافها القانونية، وهو ما يؤكده الدكتور المحمصاني في مؤلفاته المقارنة كلها[١٧]. ومعلوم أن المسلمين يعتبرون القرآن والسنة وهما وحي من الوحي المصدرين الأساسيين في التشريع، بينما القانون الروماني والقانون المدني الغربي لا يدعيان لنفسيهما العصمة أو الصدور عن الوحي، على ذلك يجيب الدكتور المحمصاني أنه يدرس الاجتهادات الفقهية الإسلامية، انه يدرس الفقه وليس الشريعة، يدرس الاستنباطات الفقهية ويقارن بينها وبين القوانين الغربية، ولا يقارن بين الوحي ومنتجات الرومان والغرب القانونية. ولأن الاجتهادات التشريعية الفقهية الإسلامية جهد إنساني مثل الجهد الغربي في المجالات نفسها، فإن المقارنة سائغة ولا غبار عليها.

وهناك مسألة ثالثة أصلية في فكر الأستاذ المحمصاني وعمله الفقهي انها الاقتناع بصلاحية التشريع الإسلامي لكل زمان ومكان. وهو لا ينطلق في ذلك من أن الشريعة موحاة في الأصل، بل من التراث الفقهي الغني، وإمكان التجديد والاجتهاد استناداً للقواعد العامة الكلية، ومشروعية الاجتهاد والتغيير من الداخل. وقد قام في مؤلفاته الأولى بأعمال تنظيمية تعتبر تجديداً في حد ذاتها من هذه الناحية. ثم تجاوز ذلك إلى الاجتهاد والتجديد وإبراز صلاحية التشريع الإسلامي المفهوم في ضوء قواعده الكلية وقوانين العصر، للتطبيق في الزمن الحاضر في مؤلفات المرحلتين الثانية والثالثة. يقول الأستاذ المحمصاني في[١٨]: «مقدمة في إحياء علوم الشريعة» انه سيستعمل مفرد «التدوين» بمعنى «صياغة الأحكام الشرعية في عبارات

النظرية العامة للموجبات والعقود

إلزامية تتبناها الدولة لأجل تنفيذها والعمل بموجبها». وهو يعني بذلك ما عناه آخرون بمفرد التقنين أي تنظيم أحكام الفقه الإسلامي في صورة أبواب ومواد تفصيلية تصلح لتطبيق القضاء على نحو ما جرى في «مجلة الأحكام العدلية». وهناك محاولات حديثة كثيرة في المجال نفسه، بل وفي مجال وضع دساتير استناداً إلى أحكام الفقه الإسلامي. وقد عرض الأستاذ المحمصاني لقضايا تقنين الفقه الإسلامي أو تدوينه كما سماه في «إحياء الشريعة» هذا، وفي بعض فصول كتابه: «الأوضاع التشريعية في الدول العربية»[١٩] وقد اعتبر المحمصاني أعماله الفقهية صيغة جديدة من صيغ تدوين الفقه أو تقنينه ليكون استعماله وتطبيقه ممكناً أو سهلاً فليس كل قاض أو مشترع أو صاحب قرار مهما بلغت ثقافته، وحسن نيته، بقادر على العودة للمصادر الفقهية من أجل استنطاقها وتنظيمها وتدوينها. فحتى «مجلة الأحكام العدلية» التي وضعها ونسقها فقهاء كبار لم تتم بتقنين نظرية الالتزام، وهو ما فعله الدكتور المحمصاني في كتابه الضخم في الموضوع. وقد نافس المصريين الذين أكثروا من وضع الكتب في أحكام الأحوال الشخصية فوضع كتاباً مقنناً بعنوان: «المبادىء الشرعية والقانونية في الحجر والنفقات والمواريث والوصية»[٢٠]. وإذا كان الطابع المدرسي بارزاً في مؤلفاته المبكرة، فإن البارز أيضاً عقلية القاضي الذي يهمه التطبيق أو وجود النص الجاهز الذي يمكن الرجوع إليه فحتى الكتب المقارنة مثل أركان حقوق الإنسان والعلاقات الدولية، تتضمن تدويناً أو تقنيناً للمسائل والقضايا بشكل تصلح معه للاستعمال أو التطبيق أو الاستشهاد الفوري. إن البارز في هذا كله ليس تحديث المادة أو عصرنتها بل وضعها في صيغة قانونية أو مادة قانونية إلى جانب إحدى مواد القانون المدني أو الروماني إبرازاً لوحدة التجربة الإنسانية من جهة، وصلاحية الفقه الإسلامي للتطبيق في الحاضر من جهة ثانية، وفي سائر نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدولية. بل ان كتبه الأخيرة في فقه الصحابة والتابعين وتابعيهم وأقضيتهم معروضة في صورة تمكن من تحويلها إلى مواد قانونية، وربما كان هذا سبباً من أسباب غياب السياق التاريخي في قراءتها وفهمها إذ أراد المؤلف أن يعرضها صالحة للتطبيق دونما فزلكة في عللها وسياقاتها.

* * *

يقول الدكتور المحمصاني في خاتمة كتابه عن الأوزاعي[٢١]:

«... هذا الإمام اللبناني العربي بمولده وموطنه، ومثواه الأخير واللبناني الأصيل بروحه وبتوكيده على الوحدة الوطنية، كان أيضاً رجلاً إنسانياً غلبت إنسانيته سائر صفاته على الإطلاق فظهر ذلك في تعاليمه السامية. كما ظهر في وقفاته الخالدة في سبيل الدفاع عن الحق ونصرة المظلومين، من دون تمييز بين العناصر والأديان...». فليس الأستاذ المحمصاني بدعاً بين المسلمين بلبنان الذين اشتووا بنيران الحرب الأهلية فازدادوا تمسكاً بوطنهم، وراحوا يلتمسون له تاريخاً للاستقرار والاستمرار، وحسن العلاقة بين الطوائف والأديان، والأوزاعي بموقفه المعروف مع أهل الذمة بلبنان ممن لم يثوروا على الدولة، أي لم ينقضوا عهد الذمة

مناسب للذكر مثلاً للإيمان المطلق بالعدالة، وللتضامن بين فئات المواطنين وان اختلفت أديانهم وأعراقهم. فالمسلمون وشيخهم الأوزاعي في أساس لبنان تماماً مثل المسيحيين الذين يدعون أحيانا الانفراد بتأسيس الكيان. لذلك يورد المحمصاني أقوالاً لمسيحيين لبنانيين تعتبر الأوزاعي بطلاً من أبطال لبنان ووحدته الوطنية[٢٢]. وقد لا تبدو هذه السطور خاتمة مناسبة لعمل الأستاذ المحمصاني الكبير في مجال الفقه الإسلامي، لكن الحرب الأهلية التي ألجأت الفقيد الكبير، والباحث الهادىء للبحث عن السلام والوحدة في رحاب الأوزاعي البعيدة في الماضي السحيق، ما تزال مستعرة الأوار بعد عام على وفاته رحمه الله، وبعد عشرة أعوام على صدور كتابه عن الأوزاعي فإن لم تكن خاتمة مناسبة كلمات المحمصاني عن الأوزاعي والوحدة الوطنية، فإنها على الأقل تذكير باليأس والأسى والضياع الذي أصابنا جميعاً رغم مساعي الأوزاعي ومساعي آخرين كثيرين ما كانوا يصدقون وهم يكدون ويعملون ويناضلون ان ما صنعته أيديهم ستحوله الفتنة إلى هباء منثور، وذلك من قاعدة «لا ضرر ولا ضرار» في «فلسفة التشريع» لفقيدنا مروراً بنظرية الالتزام وحقوق الإنسان، والعلاقات الدولية، وانتهاءً بوحدة الأوزاعي الوطنية، ومبادئه الإنسانية.

رحم الله الفقيد الكبير وعوضنا عنه من تلامذته وقرائه من يتابع دراساته وبحوثه فقد فقدنا نحن المسلمين خلال عام ونيف اعلامنا الثلاثة بلبنان في مجال الدراسات الإسلامية: عمر فروخ، وصبحي المحمصاني، وصبحي الصالح.

الهوامش

(١) صبحي المحمصاني: فلسفة التشريع الإسلامي (الطبعة الخامسة ١٩٨٠ ــ دار العلم للملايين بيروت)، ص ٩ من مقدمة الطبعة الأولى الصادرة عام ١٩٤٦.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٧٢ ــ ٢٨٨.
(٣) صبحي المحمصاني: الدعائم الخلقية للقوانين الشرعية (دار العلم للملايين ــ الطبعة الثالثة ١٩٧٩) ص ١٠٨ ــ ١٠٩، ٣٩١ (أميل تيان).
(٤) صبحي المحمصاني: النظرية العامة للموجبات والعقود في الشريعة الإسلامية (دار العلم للملايين ــ الطبعة الثانية ١٩٧٢).
(٥) تحدث الدكتور المحمصاني عن مجلة الأحكام العدلية بالتفصيل في كتابه: مقدمة في إحياء علوم الشريعة (بيروت ١٩٦٢)، ص. ص ١١٧ ــ ١٤٥.
(٦) فلسفة التشريع، ص ٩.
(٧) مقدمة في إحياء علوم الشريعة، ص ٩ ــ ٩٤.
(٨) صبحي المحمصاني: أركان حقوق الإنسان (دار العلم للملايين ١٩٧٩)، ص ٧٤ ــ ٧٥.
(٩) صبحي المحمصاني: القانون والعلاقات الدولية في الإسلام (دار العلم للملايين ١٩٨٢)، ص ٧٥ أو ما بعدها.
(١٠) الدعائم الخلقية، ص ٢٤٢ وما بعدها.
(١١) قارن بنقد لشاخت وبحوثه في عجيل جاسم النشمي: المستشرقون ومصادر التشريع الإسلامي (الكويت ١٩٨٤).
(١٢) المعني كتبه: المجاهدون في الحق، والمجتهدون في القضاء، والأوزاعي وتراث الخلفاء الراشدين.
(١٣) النظرية العامة، ص ٥.
(١٤) النظرية العامة، ص ٨ ــ ١١.
(١٥) فلسفة التشريع، ص ٥١ وما بعدها، ٢١٧ وما بعدها، ٢٨٩ وما بعدها.
(١٦) في كتابه: أركان حقوق الإنسان.
(١٧) في كتابه القانون والعلاقات الدولية في الإسلام.
(١٨) مقدمة، ص ٩٥ وما بعدها.
(١٩) صبحي المحمصاني: الأوضاع التشريعية في الدول العربية (بيروت، الطبعة الثانية ١٩٦٢).
(٢٠) بيروت، الطبعة الثانية ١٩٥٩. وقد صدرت طبعته الأولى عام ١٩٥٤.
(٢١) صبحي المحمصاني: الأوزاعي وتعاليمه الإنسانية والقانونية (دار العلم للملايين ١٩٧٨).
(٢٢) الأوزاعي، ص ٤٣١ ــ ٤٣٢.

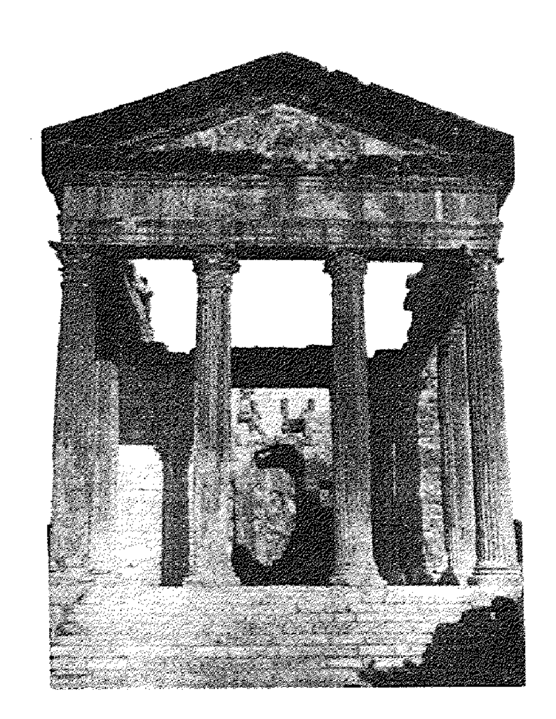
موطنها لبنان

أرزة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجويّة اللبنانيّة

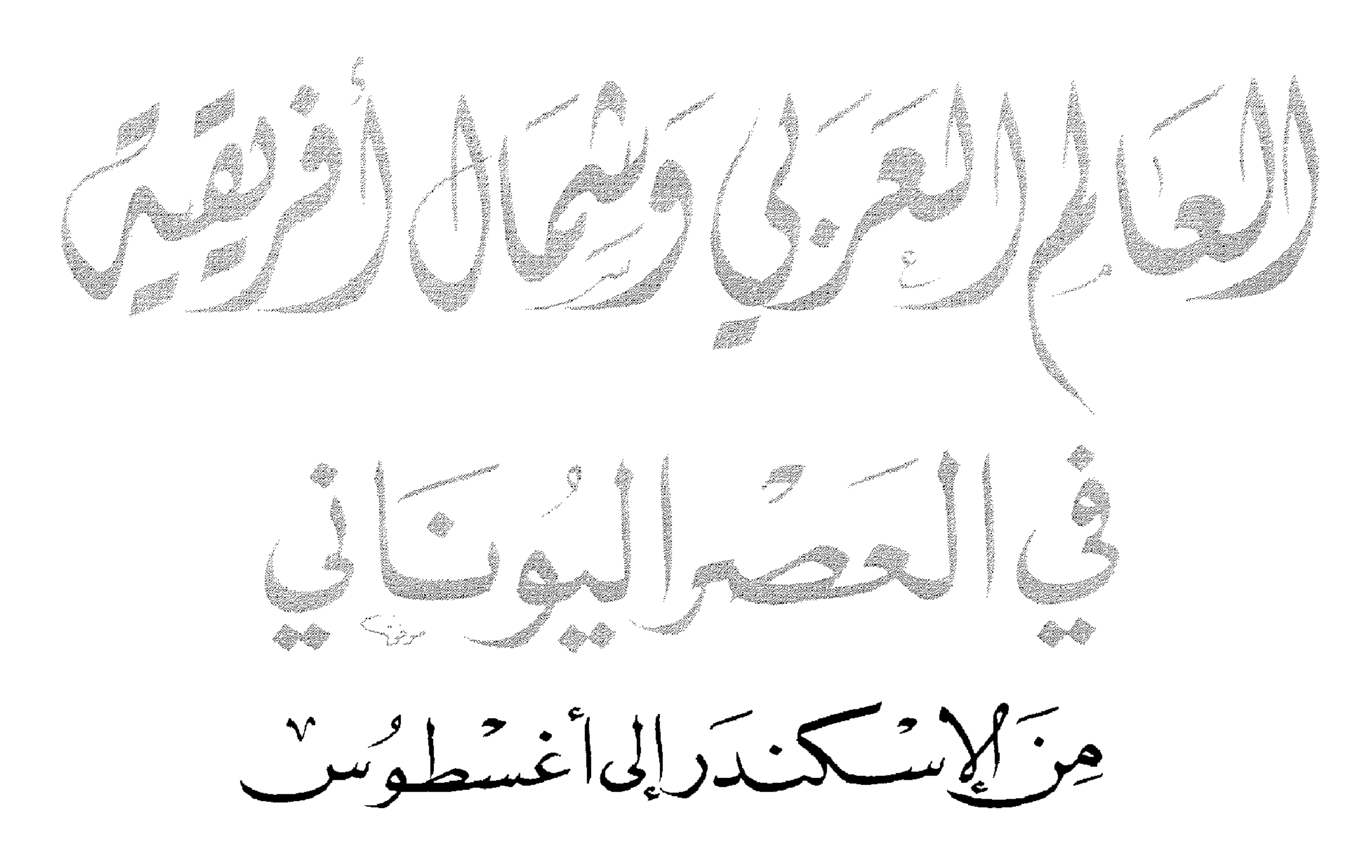
جذورها راسخة في الشرق الأوسط

وأغصانها ممتدّة في أرجاء الدّنيا





□ كابيتول دوغا — Dougga
احدى أجمل الآثار الرومانية
في شمالي افريقيا ١٦٦م.



د. نقولا زيادة

تعرف الفترة الممتدة من فتوح الإسكندر إلى أيام الامبراطور الروماني اغسطوس باسم العصر الهلينستي. وقد كانت لهذه الفترة سمات حضارية وفكرية خاصة ظهرت بشكل واضح في المشرق. لكن شمال افريقية تأثر باليونان وعن طريق مصر بشكل أخص.

ثم ظهرت رومة وافتتحت المنطقة الممتدة من اسبانية إلى نهر الفرات. وكان لرومة أثر كبير في تطور الحضارة الافريقية في شمال القارة.

على أن افريقية كان لها أيضاً أثر في تطوير الحياة الاقتصادية.

المقال التالي يوضح هذا التفاعل الذي تم في هذه القرون الثلاثة (وبعض القرن) بين قيام الإسكندر وحكم اغسطوس.



كان فيليب الثاني ملك مقدونيا (٣٨٢ ــ ٣٣٦ق.م) قد اعد جيشاً لغزو الإمبراطورية الفارسية انتقاماً للحروب التي شنتها هذه على بلاد اليونان قبل ذلك بقرن ويزيد. لكنه اغتيل (سنة ٣٣٦ق. م) قبل أن يحقق هدفه. فخلفه على العرش ابنه الإسكندر وكان في العشرين من عمره. وفي سنة ٣٣٤ق. م. اجاز الإسكندر الدردنيل إلى آسية الصغرى، وكان تحت قيادته جيش قوامه ثلاثون الف راجل وخمسة آلاف فارس وفيه نحو مئة من الرجال القادرين ليتولوا المناصب الإدارية وتنظيم المؤن. كما أن الإسكندر راعى الغاية في الدقة والإتقان من حيث معدات الجيش وآلات الحصار. وسار الإسكندر يستولي على مدن آسية الصغرى الواحدة تلو الأخرى. وفي سنة ٣٣٣ ق. م. انتصر على جيش فارسي كبير في ايسوس.

واتجه الإسكندر نحو الساحل الشامي، وكان يهمه أن يستولي على الإسطول الفينيقي الذي كان تابعاً للفرس. وقد سلمت له المدن الساحلية الواحدة تلو الأخرى، ولم يقاومه سوى صور وغزة اللتين تغلب عليهما بصعوبة وبعد حصار طويل. وأرسل الإسكندر أحد قواده، بارمنيون للإستلاء على دمشق، ثم تابع هو سيره إلى مصر، فدخلها دون إراقة دماء (٣٣٢ ق. م.). واختط فيها مدينة الإسكندرية.

وبعد زيارة لموحى أمون، في واحة سيوه، عاد إلى بلاد الشام فنظم أمورها، ثم سار لقتال دارا ملك الفرس (حكم ٣٣٦ ــ ٣٣١ ق. م.). وبين ٣٣١ و٣٢٦ ق. م. تمكن الإسكندر من القضاء على الإمبراطورية الفارسية واحتلال المناطق الواقعة إلى الشرق منها في حوض السند وإلى الشمال الشرقي في أواسط آسية. وعاد إلى بابل فوصلها في سنة ٣٢٤ ق. م. وكان قد أرسل أمير البحر نيارخوس ليكتشف الساحل الآسيوي من مصب نهر السند إلى مصب دجلة والفرات. ثم أرسل ثلاث بعثات بحرية لاكتشاف السواحل الغربية للخليج العربي وخليج عُمان، تمهيداً لفتح الجزيرة العربية، فيما يعتقد، لكنه توفي سنة ٣٢٣ ق. م. فتوقف كل شيء.

خلفاء الإسكندر

كان الإسكندر يريد أن يُكَوِّنَ عالماً يسوده السلم والصفاء والخير، تمتزج فيه الأجناس جميعها. وكان إنشاء المدن في امبراطوريته ونقل اليونان إليها أحد الأسس الرئيسة لسياسته وآماله. وقد بنى الإسكندر خمساً وعشرين مدينة في امبراطوريته الواسعة.

كانت الأمبراطورية التي احتلها الإسكندر واسعة جداً، ولم يكن بين قواده من يستطيع أن يخلفه. لذلك قامت بينهم حروب ومنازعات استمرت نحو من اربعين سنة (٣٢٣ ــ ٢٨١ ق. م.) انتهت بقسمة الأمبراطورية بين القواد الذين ظهروا من جديد، وكان بعضهم من أولاد قادة الإسكندر. فكان ثمة مملكة في آسية هي مملكة السلوقيين، وكانت مملكة البطالمة في مصر، وكانت ثمة مملكة في مقدونيا. ويهمنا في هذا المقام

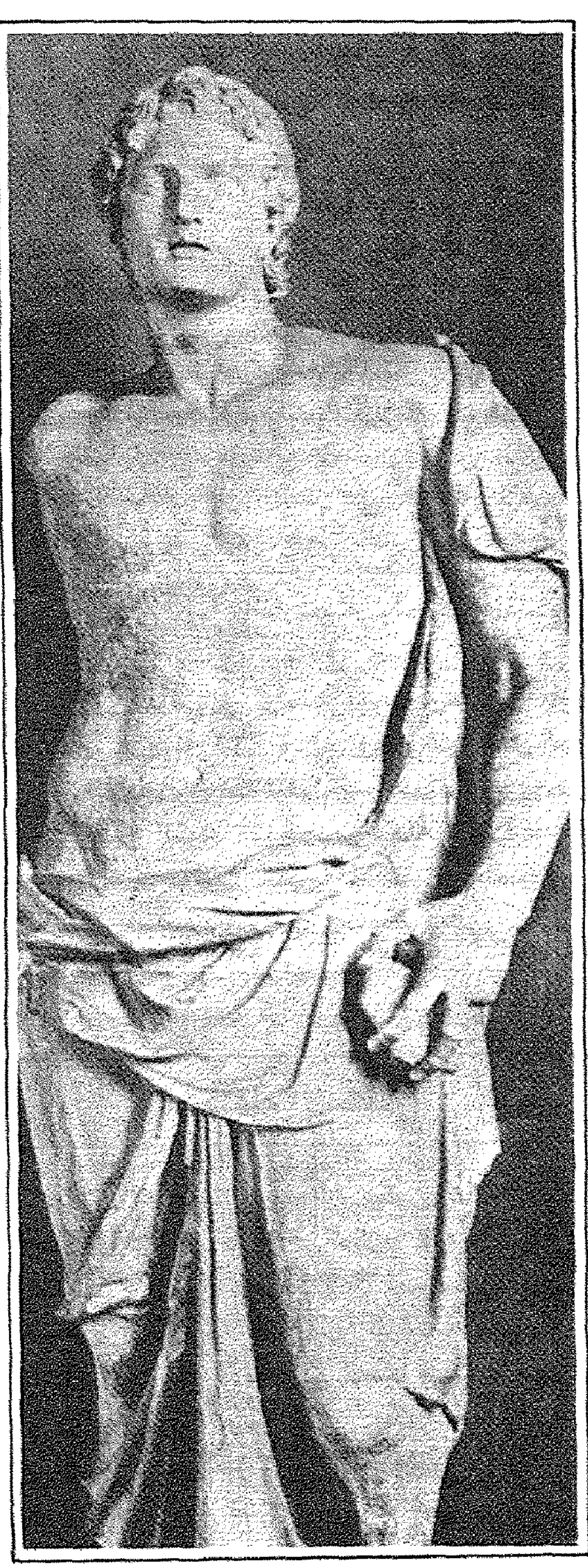
أما دولة البطالمة فقد تركزت في مصر. إلا أن البطالمة كانوا دوماً يسعون لاحتلال النصف الجنوبي من بلاد الشام أي فلسطين والأردن ولبنان. وذلك لسببين الأول أن هذه المنطقة هي خط الدفاع الأول عن مصر وثانياً لأنها غنية بالمواد الخام اللازمة لمصر كالأخشاب والزيت وبعض المعادن. يضاف إلى ذلك أن الإستيلاء عليها يسمح لمصر أن تسيطر على بعض طرق التجارة البرية بين البحر المتوسط والخليج العربي. ومن ثم فقد دارت خمس حروب بين البطالمة والسلوقيين في القرن الثالث (من ٢٧٦ ــ ٢٠٠ ق. م.) وانتهت بأن خضعت المنطقة للبطالمة بعض الوقت.

مملكة السلوقيين

كان نظام الحكم الذي حاول السلوقيون أن يطبقوه في مملكتهم يقوم على أساسين: الأول أن الملك ورث فكرة الملكية الشرقية القديمة أي أنه كان صاحب السلطة المطلقة. والثاني هو أن المدن اليونانية التي أنشئت في المملكة اتبعت نظام الدولة ــ المدينة اليوناني. فكانت لها مؤسساتها الدستورية، كما كان لها استقلالها الذاتي. فهي لم تقبل الملك السلوقي على أنه صاحب السلطة المطلقة. ومع أن الأرض في حدود الأمبراطورية كانت ملكاً للدولة أي الملك، فإن أراضي المدن والأراضي التي كانت وقفاً على الهياكل لم تكن تتبعه. وبعض هذه الهياكل كانت دويلات مستقلة لها ما يقرب من ستة آلاف عبد وأمة، مثل هيكل منبج وهيكل حمص.

المدن في المملكة السلوقية

كان السلوقيون يريدون نقل الحضارة اليونانية إلى مملكتهم. ومن هنا كانت عنايتهم ببناء المدن أو تجديدها. وقد بلغت المدن التي تم لها ذلك في أيامهم ثلاثاً وستين مدينة في بلاد الشام وحدها. وكان سكان هذه المدن من قدامى المحاربين وأولادهم وأحفادهم (من أيام الإسكندر



المملكتان الأوليان ــ السلوقيون والبطالمة.

كانت المملكة السلوقية، بادىء الأمر، تشمل إيران وبابل وشمال سورية وشمال العراق فضلاً عن تركستان وافغانستان. لكن الأجزاء الشرقية خرجت منها واستقلت، ثم تبعتها أجزاء أخرى حتى ظلت دولة سورية عاصمتها انطاكية.

إلى جميع الذين جاءوا فيما بعد) ومن يونانيين ومكدونيين نُقلوا، أو شُجِّعوا على الإنتقال إلى هذه المدن. وقد كانت هذه المدن جزراً في بحر من الحضارة والعادات والتقاليد واللغات الشرقية. إذ أن الريف احتفظ بطابعه الأصلي. وتكلم سكان المدن اليونانية إلا أن سكان الريف ظلوا يستعملون الآرامية أو الفينيقية على العموم.

ومن المدن الرئيسة في العصر السلوقي في بلاد الشام انطاكية، العاصمة، وسلوقية عند مصب العاصي، وسلوقية ــ على دجلة، واللاذقية وأفامية المعسكر الرئيس للدولة السلوقية في شمال سورية. وكانت تربى فيها الخيول وتحفظ الفيلة. وهناك حلب ومنبج ودورا (الصالحية على الفرات) وحمص وبعلبك وفيلادلفيا (عمان، وكانت من عمل البطالمة) وابولونيا (قرب نابلس) ومريسة (في جنوب فلسطين) وطرابلس وببلوس (جبيل) وبيروت وصيدا وصور وعكا ودورا ويافا وعسقلان وغزة ورفح.

امتيازات المدن

كانت هذه المدن، أو أكثرها على الأقل، تسعى لزيادة حكمها الذاتي وحريتها واستقلالها. والتحرر في إدارة المدن كان أصيلاً. لكن توسيع مدى الحرية كان الدافع إليه حاجة السلوقيين إلى المال واستعداد هذه المدن الثرية للدفع،ثمناً لحريتها. فترتب على ذلك أن هذه المدن بدأت من أيام انطيوخوس الرابع (حكم ١٧٥ ــ ١٦٣ ق.م.) في الحصول على الأمور التالية: أولاً الحرية في اختيار السياسة التي تناسبها، فاصبحت سياسة هذه المدن خاصة شخصية، وقد تتعارض مع سياسة الدولة العامة. ثانياً حصلت بعض المدن على حق سك نقود خاصة بها. وهذا كان يعني استقلال المدينة في حياتها الاقتصادية وموازنتها العامة. وثالثاً، وهو أشد الأمتيازات أثراً في أضعاف السلطة المركزية، «الحصانة المدينية». فالمدينة كانت تُمْنَحُ «حصانة» تحميها من تدخل الدولة في أمورها البتة. ومن أمثلة المدن التي حصلت على ذلك ارواد سنة ١٣٧ وصور سنة ١٢٥ وطرابلس سنة ١١١ وعسقلان سنة ١٠٤ ق.م.

والذي نتج عن هذه الامتيازات المتنوعة، والتي كانت تزداد سنة بعد سنة، هو أن الدولة السلوقية أصبحت مجموعة من الخلايا المدينية غير المتماسكة. وكان من اليسير على هذه المدن أن تقتتل فيما بينها.

دولة البطالمة

كانت فلسفة البطالمة السياسية تقوم على أساس أن الملك هو رأس السلطة وصاحب النفوذ. فكأنهم بذلك ورثوا، ولو بطريقة غير مباشرة، موقف الفراعنة القدماء من الحكم. ولم يعنوا بإنشاء المدن في مملكتهم. فلم يكن عندهم سوى الإسكندرية ومدينتين أخريين في مصر وفيلالفيا (عمان). واليونان الذين هبطوا مصر، على نحو ما جاء اليونان إلى بلاد الشام، كانوا يسكنون في البلاد دون أن ينشئوا تجمعات خاصة ويقيموا مؤسسات مدينة على نحو ما كان عليه الحال في بلاد اليونان نفسها.

الحياة الاقتصادية في المشرق العربي

يعتبر العصر الهلّنستي، أي القرون الأربعة التي تلت قيام الإسكندر بفتوحاته، من الناحية التجارية، فترة انتقال من الحياة الاقتصادية المحلية المحدودة إلى نوع من الاقتصاد العالمي. فقد أصبح العالم واسعاً وصار التعامل بين اجزائه ممكناً. وتعدد المراكز التجارية، البحرية منها والبرية. والطرق التي فتحت بسبب حروب الإسكندر ظلت موضع عناية. ويمكن القول بأن الطرق الرئيسة التي كانت تصل مصر وبلاد الشام بالشرق الأقصى هي: (١) الطريق الشمالي إلى البحر الأسود عبر آسية الصغرى. (٢) طريق من افسس إلى سميساط (على الفرات) ثم إلى بابل أو سلوقية (على دجلة) ثم شرقاً أما إلى حوض السند الأدنى أو حوض السند الأعلى. (٣) طريق من بابل أو سلوقية براً إلى جرها (العجير؟) على الخليج العربي. (٤) الطريق الذي كان يصل البتراء باليمن. (٥) كان ثمة طريق هام يصل جنوب العراق بالبتراء عبر الصحراء.

وقد عرف العصر الهلينستي الاحتكار الحكومي في أنواع من الصناعات. فالبطالمة احتكروا صناعة الأقمشة والبردي.

ومن الأمور الحرية بالذكر شيوع الاقتصاد النقدي. وهذا أصبح ممكناً بسبب تنظيم سك النقود وتبادلها.

وكان ثمة اهتمام بالزراعة وتنويع للمزروعات بسبب الاتصال بين المناطق المختلفة على تباعدها. وقد عني البطالمة بإنشاء الترع والسدود. وقد قام البطالمة بإحياء أراضي الفيوم بالعودة إلى استغلال البحيرة على نحو ما فعل الفراعنة القدماء. وقد كان ثمة نحو مئة قرية تعتمد على الزراعة.

وقد عرف العالم الهلنستي الحبوب والخضراوات والكرمة والزيتون. وهذه عرفت كلها في المشرق العربي. وكانت مصر تنتج كميات كبيرة من الصوف من الأغنام الكثيرة. وكانت العناية بالخيول في سورية وآسية الصغرى كبيرة بسبب اهتمامهم بالفرسان في القتال.

ومع أن الصناعة كانت أقل فروع الاقتصاد تقدماً، فقد زاد الاهتمام بالحلي الفضية، وشاع استعمال الحرير في الثياب. وحافظت صور وصيدا وغيرهما من مدن الساحل الشامي على مراكزها الصناعية.

الفنون والآداب والعلوم في المشرق العربي

المدن الكبرى كانت فيها أبنية عامة كثيرة الأمر الذي اقتضى العناية بالنحت للزخرف. وكانت أنطاكية والإسكندرية في مقدمة المدن التي اهتمت بذلك. وكانت المدن الجديدة تتقاطع شوارعها هندسياً.

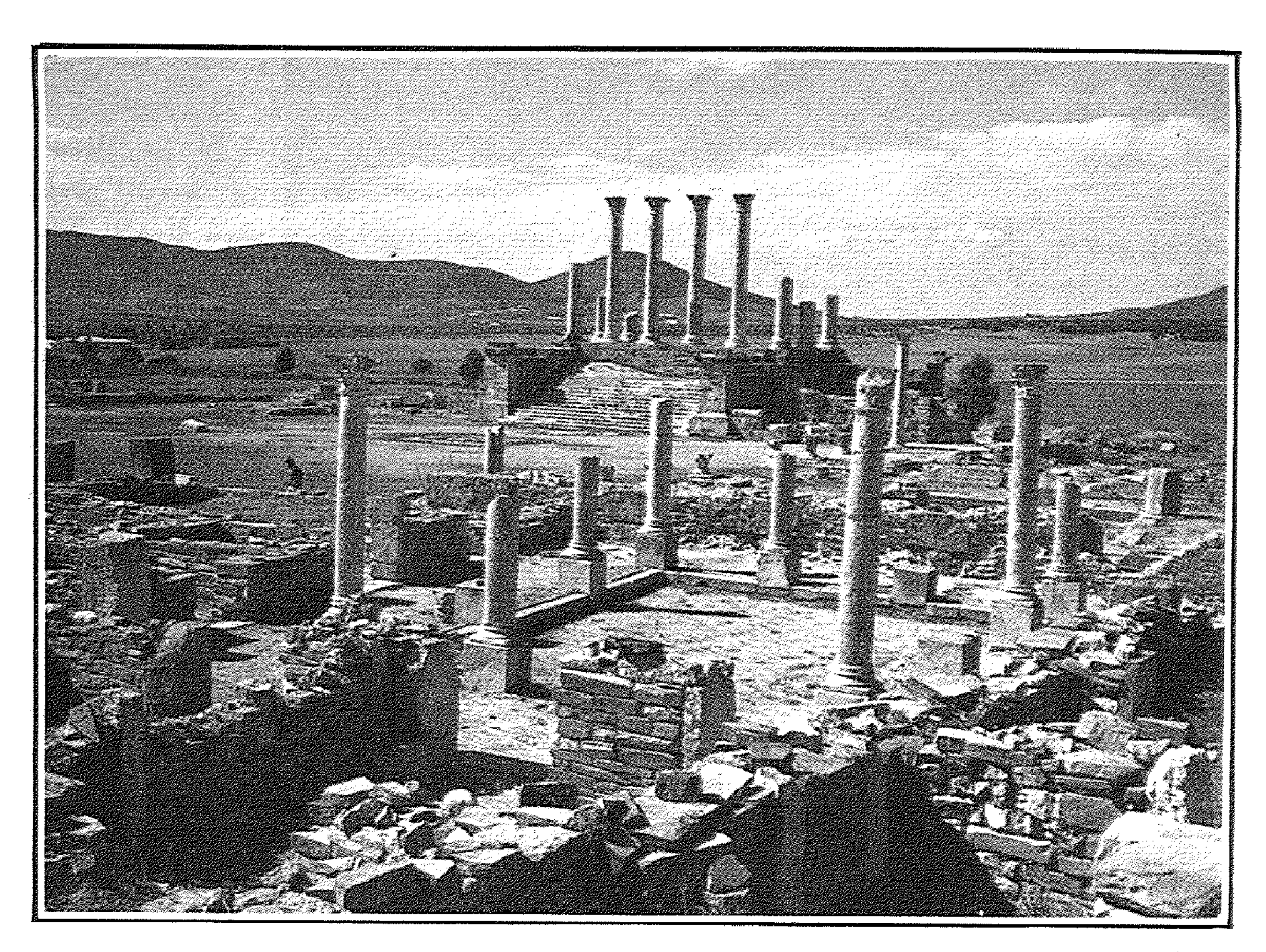
شجع ملوك العصر الهلينستي المشتغلين بالإنتاج الفكري. فقد كلف بطليموس الأول ديمتريوس (سنة ٢٩٤ ق. م.) بإنشاء المتحف في الإسكندرية الذي أصبح موئلاً لخيرة المشتغلين بالعلم. وفي المتحف عمل امثال أراتوشينس القولايني (٢٧٣ ــ ١٩٢ ق. م.) الجغرافي الرياضي الذي قاس محيط الأرض، فكان الخطأ عنده نحو ثلاثمئة كيلو متر فقط. وكان من علماء الجغرافية الرياضية بوزيدانوس السوري (١٣٥ ــ ٥١ ق. م.) وكتزيبوس الإسكندري (أواخر القرن الثالث ق. م.) الميكانيكي. وسلوقس البابلي (حول ١٥٠ ق. م.) الرياضي.

في القرن الأول ق. م. زالت المملكتان المشرقيتان اللتان كانتا أنشط الدول التي توزعت امبراطورية الإسكندر وكان زوالهما تدريجاً، وقد تم على يد الرومان. لذلك فإننا لا بد من متابعة ظهور رومة وتطور قوتها قبل تتبع دورها في إنهاء دور هاتين الدولتين.

رومة وتوسعها الأول

ظهور رومة على المسرح السياسي: يبدأ تاريخ رومة، إذا أخذنا بالتقليد والقصة، حول سنة ٧٥٤ق.م. ولكن البحث الجدي والتنقيب الأثري أثبتا أن ظهور رومة الأول يعود إلى القرن السادس ق.م. وتعود الأهمية الخاصة لهذه المدينة أصلاً إلى كونها كانت تقوم قرب مخاضة على نهر التيبر، فكان يسهل على الناس اجتياز النهر لتبادل السلع والمتاجر بين القبائل الساكنة شمالي النهر مع تلك التي تقيم جنوبيه. وفي وقت مبكر من القرن السادس ق.م. بني جسر على النهر، فأصبح اجتيازه أسهل وأيسر. وفي واقع الأمر فإن هذا الظهور الأول لرومة يرجع إلى الأترسكيين، الذين جاءوها من شمال غربي شبه جزيرة إيطالية، وجعلوا منها مدينة هامة وكان نظام الحكم هناك ملكياً. ويبدو أن الملوك استبدوا فثار بهم سكان روما (سنة ٥٠٩ق.م.) وأخرجوهم، وأخرجوا معهم الأترسكيين الأجانب. وهكذا فإن ثورة الرومان في تلك السنة كانت ثورة وطنية. ومع ذلك فهناك من الباحثين من يرى بأن النظام الملكي لم ينته أمره في ٥٠٩ ق.م. بل إنه استمر في كر وفر نيفاً وثلاثين سنة قبل أن قضي عليه.

أخذت رومه نفسها، بعد ذلك، بتمكين قبضتها على الأرض والسكان في جوارها. فكان أن احتلت لايتوم، كما أن الرومان طوروا نظامهم السياسي



□ كابيتول مدينة طبرق.

على أساس أن عهدوا إلى قنصلين، كانا ينتخبان سنوياً، لإدارة البلاد مشتركين. كما قامت في المدينة مجامع مختلفة ومجلس شيوخ. وبعبارة أخرى اتخذت رومه شكل المدينة ــ الدولة، وهو النظام الذي عرفه العالم قبلاً في بلاد السومريين وفي بلاد الشام وفي بلاد اليونان.

وفي الفترة التي مرت بين سنتي ٣٩١ و ٢٦٤ق.م. تمكنت رومه من فتح شبه الجزيرة الإيطالية إلى نهر روبيكون. وكان معنى هذا أن توفر للدولة الجديدة قوى بشرية كبيرة كانت عوناً لها في حروبها الكثيرة والطويلة خلال القرون الثلاثة التي تلت ذلك.

رومة وقرطاجة

كانت قرطاجة، كما رأينا في فصل سابق، قد أقامت لنفسها دولة قوية في ما يقابل تونس الحالية، على وجه التقريب، كما أنها سيطرت على الحياة الاقتصادية في شمال افريقية. وقد كانت العلاقات بين رومة وقرطاجة عادية في أول الامر. وثمة معاهدتان تجاريتان عقدتا بين البلدين في سنة ٥٠٨ وفي سنة ٣٤٨ق.م. سمحت قرطاجة بموجبهما، لرومة في أن تتعاطى التجارة حتى في قرطاجة نفسها. أما الجزء الأوروبي المصاقب لإيطالية والذي كانت حالة الحرب فيه مع قرطاجة تقوم كثيراً، فهو جزيرة صقلية. ومن المهم أن نذكر أنه لما استعانت سيراقوسة اليونانية (في جزيرة صقلية) بملك أبيروس اليوناني برّوس، وجاء هذا بجيشه (٢٧٨ ــ ٢٧٦ق.م.) إلى الجزيرة، قام حلف روماني قرطاجي ضد برّوس.

إلا أن الوضع تغير ابتداء من العقد السابع من القرن الثالث ق.م.، أي بعد عودة برّوس إلى بلده. وصارت أبواق الحرب وطبوله هي التي تسمع بين البلدين. ويرجع الأمر إلى جزيرة صقلية. فموقع هذه الجزيرة بين إيطالية والشمال الافريقي أولاً وبالنسبة إلى النصف الغربي من حوض البحر المتوسط، يجعلها هامة جداً من

نواحي المواصلات والقواعد البحرية تجارياً واستراتيجياً. إلا أن جزيرة صقلية أصغر وأضعف من أن تسيطر على ذلك الجزء من حوض المتوسط. إن مثل هذه السيطرة لا تقدر عليها إلا دولة تتمتع بثروة كبيرة وقوى بشرية ضخمة وتستولي في الوقت ذاته على صقلية لتفيد من موقعها. وقد أصبح من الطبيعي، بعد أن قامت الدولة الرومانية في إيطالية، أن تحاول هذه أو قرطاجة الاستيلاء على صقلية، ليتم لها السيطرة على الحوض الغربي للبحر المتوسط. وسبيل الاستيلاء الحرب.

الحروب القرطاجية (البونية)

لنذكر أنفسنا، قبل متابعة قصة الحملات العسكرية، البرية منها والبحرية، ببضعة أمور هي: أولاً أن رومة كان لديها قوى بشرية كبيرة يمكنها أن تحصل عليها من إيطالية. ثانياً أن جيش قرطاجة كان، في غالبه، من المرتزقة. ثالثاً أن قرطاجة كانت أوسع ثراء من رومه. ورابعاً وأخيراً أن قرطاجة كان عندها أسطول لا يستهان به، ولم تكن رومة قد بنت أسطولاً يعتد به بعد. وقد قامت ثلاث حروب بين الدولتين يمكن تلخيصها بما يلي:

الحرب الأولى (٢٦٤ ــ ٢٤١ق.م.) ــ بدأت الحرب بسبب أن جماعة من أهل مسّينا اشتبكوا في خصومة مع سيراقوسة، فاستنجدوا بقرطاجة. ولكن قرطاجة لم تسحب قواتها بعد ذلك، فاستجارت الجماعة الأصلية نفسها برومة ضد القوات القرطاجية فجاءت رومة لنجدتها. وانحازت سيراقوسة إلى قرطاجة. وبدأت الحرب سنة ٢٦٤ق.م.

نجحت رومه في تخليص مسّينا، وعزل ملك سيراقوسة عن أحلافه القرطاجيين. واحتل هؤلاء اغريغنتوم فأخرجهم الرومان منها. وعندها بدا للرومان أن احتلال صقلية أصبح ضرورياً لهم، فقاتلوا في سبيل ذلك نحو عشرين سنة. وكان فيما اهتم به الرومان الآن بناء اسطول، فتم لهم ذلك وواقعوا الأسطول القرطاجي وتغلبوا عليه (في ميلي سنة ٢٦٠ق.م.) وهاجم الرومان افريقية وحاصروا قرطاجة نفسها، لكن القرطاجيين عادوا فتغلبوا عليهم فانسحبوا من افريقية (٢٥٦ ــ ٢٥٥ق.م.).

ودارت بين الرومان والقرطاجيين معارك في صقلية بالذات وكان النصر يتناوبه الفريقان حتى انتصر الاسطول الروماني (في جزر ايغاتس سنة ٢٤١ق.م.). وعندها سلمت قرطاجة. وعقد بين الدولتين صلح تخلت بموجبه قرطاجة عن صقلية نهائياً، وتعهدت بدفع غرامة مقدارها ٣٢٠٠ وزنة مقسطة على عشرين سنة (٢٤١ق.م. ــ وفي سنة ٢٢٧ جعلت صقلية ولاية رومانية). وترتب على هذه الحرب أن استولت رومة على جزيرتي سردينية وكورسيكا. أما قرطاجة فقد وسعت ممتلكاتها في إسبانية، وكان ذلك أربح لها من صقلية.

يقول ارنولد توينبي عن هذه الحرب: «في هذه الحرب الرومانية القرطاجية، ٢٦٤ ــ ٢٤١ق.م.، جند من الجند واعد من الأساطيل وحدث فيها من الإصابات والخسائر البشرية على مقياس لم يكن له سابقة في تاريخ الحروب في حوض البحر المتوسط».

وفي سنة ٢٢٦ق.م. عقدت رومه مع قرطاجة معاهدة نهر إبرو، التي جعلت النهر حداً لتقدم قرطاجة.

الحرب الثانية (٢١٨ ــ ٢٠٢ق.م.) ــ كان هنيبعل (هينبال) القائد القرطاجي يقوم بتوسيع أملاك دولته في إسبانية، فهاجم ساغنتوم، وهي خلف نهر إبرو، فاحتجت رومة وطلبت ترك المدينة، فلم يهتم هنيبعل بقول رومة. وأرسلت جيشاً وأسطولاً إلى افريقية، وقوة صغيرة إلى اسبانية لمقاومة هنيبعل. وعندها قاد هذا القائد جيشاً ضخماً، من خمسين ألفاً، وسار به براً إلى شمال إيطالية، وقد انتصر على الرومان وجيوشهم في معركة تريبيا (٢١٨ق.م.) ومعركة تراسيمني (٢١٧ق.م.) ومعركة كاني (٢١٦ق.م.) لكنه لم يتجه إلى رومه لأنه كان يعرف حصانتها وكانت تعوزه آلات الحصار ووسائله. واحتل تارنتوم (٢١٢) ورأى شيبيو أن الحرب يجب أن تنقل إلى افريقية، وتم ذلك سنة ٢٠٤. عندها استدعت قرطاجة هيبعل إلى مدينته ليدافع عنها. والتقى هينبعل وشيبيو في معركة زاما (في وادي المجيردة، سنة ٢٠٢ق.م.). وقد انضم مسينسّا ملك نوميديا إلى شيبيو.

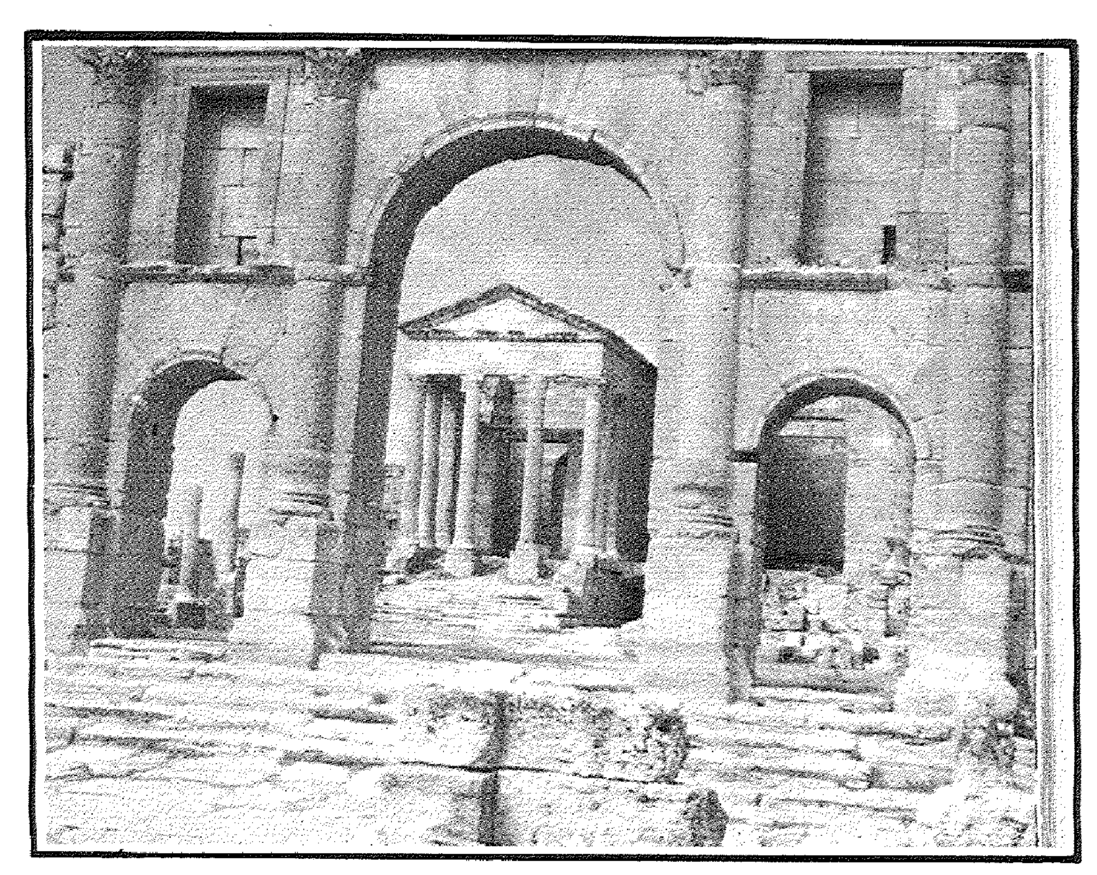


□ هنيبعل القائد القرطاجي.

وكانت النتيجة انتصار الرومان. وأملت رومه شروط الصلح وهي: (١) تدفع قرطاجة عشرة آلاف وزنة غرامة. (٢) يسمح لها بالاحتفاظ بعشر سفن فقط. (٣) تتخلى عن إسبانية نهائياً. (٤) تمتنع قرطاجة عن محاربة حلفاء رومه إلا بإذن منها. وقد أفاد مسينسًا بأن تولى نوميديا مع توسع في مملكته على حساب قرطاجة.

الحرب الثالثة (١٤٩ ـ ١٤٦ق.م.) ـ عاد إلى قرطاجة نشاطها الاقتصادي فنفسته عليها رومة. ولكن قرطاجة لم تتعد شروط الصلح. ومع ذلك فإن مسينسًا أخذ يوسع أملاكه على حسابها، ولما لم تردعه رومه لجأت قرطاجة إلى السلاح للدفاع عن نفسها. وعندها أعلنت رومه الحرب على قرطاجة، لأن مسينسًا كان حليفاً لرومة.

جاء الجيش الروماني سنة ١٤٩ق.م. وضرب الحصار على قرطاجة. وعين شيبيو أميليانوس قائداً عاماً فشدد الحصار على المدينة. وقد دافع القرطاجيون عن مدينتهم دفاع الأبطال لكنهم غلبوا أخيراً. فاحتل الرومان قرطاجة ودمروها (١٤٦ق.م.).



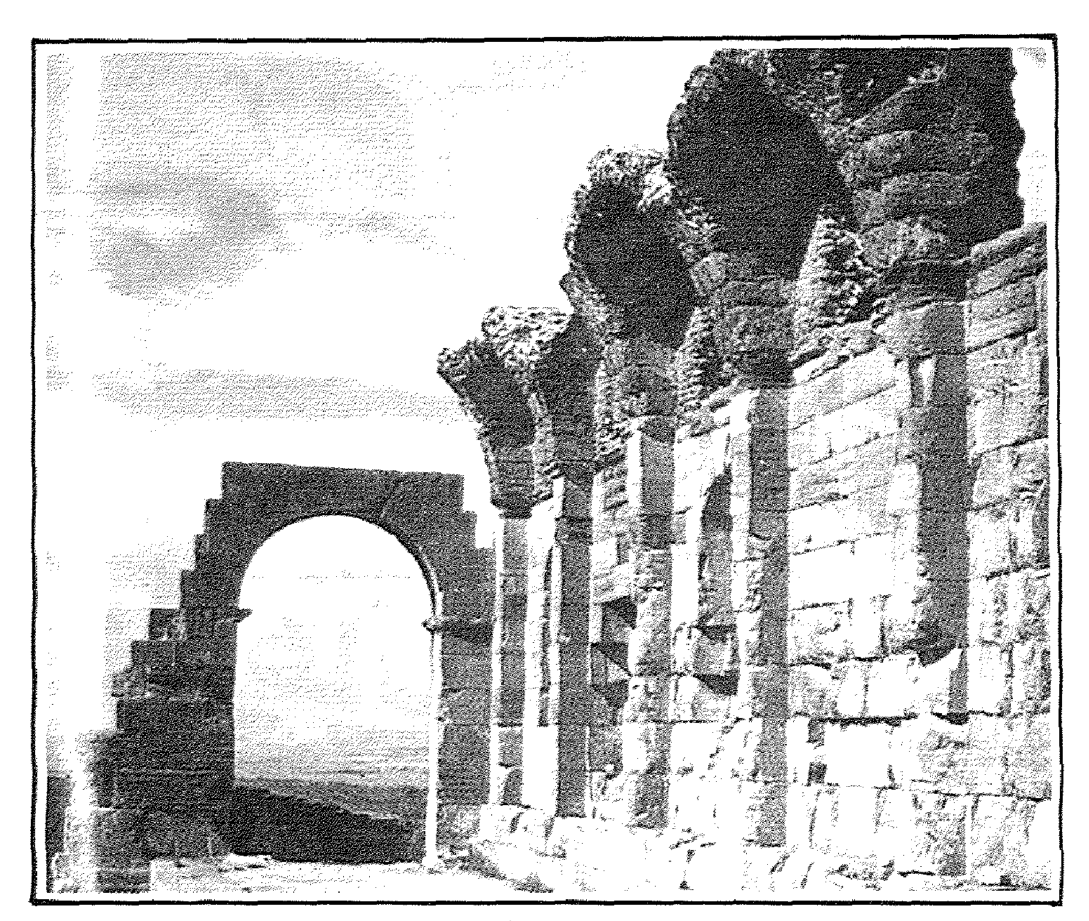
□ ساحة مدينة سبيتلة، سومتولا قديما، التي احتلت مكانة قرطاج واصبحت عاصمة افريقيا ايام الامبراطور غريغوار الروماني عام ٦٤٦م.

رومة وشمال افريقية

يبدو أن رومه لم تكن تخطط لامتلاك بلاد في شمال افريقية، وأن تدميرها لقرطاجة كان نابعاً من خوفها من أن تعود قرطاجة إلى نشاطها وتزاحم رومة في حوض البحر المتوسط الغربي. والواقع أن الرومان، بعد أن تدخلوا في شؤون المشرق أيضاً، وأضعفوا دولة السلوقيين بحيث يمكن القول بأنهم شلوها وإن لم يقضوا عليها (سنة ١٦٨ق.م. في حروبهم ضد انطيوخوس الرابع)، فإنهم لم يحاولوا أن يملأوا الفراغ السياسي والعسكري الذي أوجدوه. وكان لا بد من انتظار قرن بالنسبة للمشرق (حتى سنة ٦٧ق.م.) لما ذهب إليه بومبي، وكان لا بد من انتظار قرن بعد تدمير قرطاجة (إلى سنة ٤٩ ق.م. لما ذهب يوليوس قيصر إلى شمال افريقية لبسط السلطة الرومانية عليه.

فبعد تدمير قرطاجة جعلت هذه ولاية رومانية وكانت أُتيكا هي العاصمة، كما بسطت رومة حمايتها على نوميديا، بحيث أصبح بإمكان التجار الإيطاليين تبادل السلع مع البربر. وقد مرّ على نوميديا تقسيمها أكثر من مرة بين الورثة، لكنها عادت فتوحدت تحت حكم يوغرتا (١٥٠ ــ ١٠٤ق.م.) الذي أراد أن يوحد المغرب جميعه تحت حكمه. وقد احتل كِرْتا وأساء إلى الإيطاليين الذين كانوا هناك، لأنهم دافعوا عنها. وأرسلت رومة حملتين تأديبيتين ضده، لكنهما لم تستطيعا وضع حد لتصرفه، إلى أن قاد ماريوس حملة (سنة ١٠٧ق.م.) فانتصرت عليه وألقي القبض عليه. وعندها ضمت نوميديا إلى رومة على أنها ولاية رومانية.

وفي أثناء الحرب الأهلية التي قامت بين بومبي ويوليوس قيصر لجأ أتباع بومبي إلى الشمال الافريقي، وأعانهم يوبا الأول ملك نوميديا. فأرسل يوليوس قيصر حملة إلى تلك المنطقة (سنة ٤٩ق.م.) لكنها لم تنجح. فذهب بنفسه وانتصر على خصومه من الرومان والنوميديين (في معركة تابْسوس سنة ٤٦ ق.م.). وعندها وسع ولاية افريقية وسماها افريقية الجديدة (افريكا نوفا).



□ معبد الحوريات في زغوان جنوب تونس العاصمة.

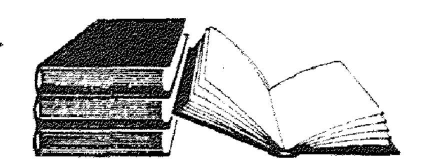
كانت موريتانيا تتمتع من قبل بنوع من الاستقلال الذاتي، لكن بعد ضم نوميديا إلى الولاية، أصبحت موريتانيا أقرب إلى المحمية. وفي سنة ٢٥ق.م. ملّك اغسطس قيصر يوبا الثاني عليها.

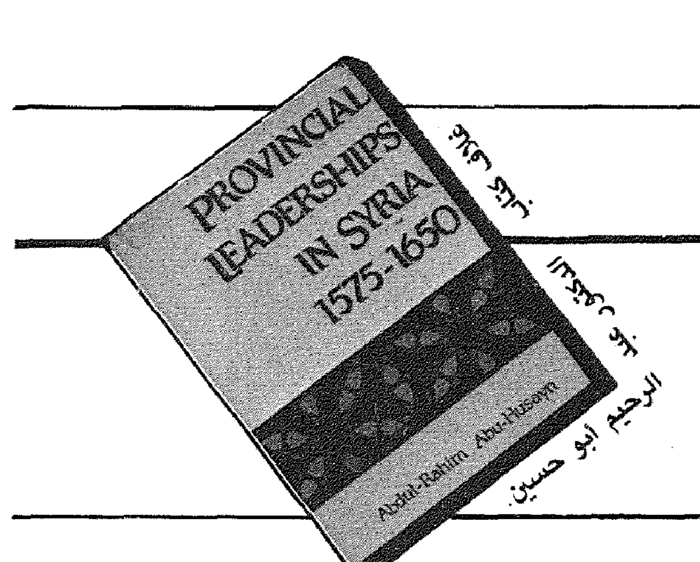
رومة والمشرق

أشرنا من قبل إلى الفراغ السياسي والعسكري الذي أوجدته رومه في المشرق لا بتدخلها في شؤون الدولة السلوقية فحسب، بل في أمور البطالمة وغيرهم من الدول الصغرى في آسية الصغرى والدويلات اليونانية في البر الأصلي والجزر. ولم تحاول رومة ملء الفراغ الذي أحدثته. وترتب على ذلك أن أخذت المنطقة بأسرها تتخبط بشكل يدعو إلى القلق. ولم تنج من هذا التخبط إلا الجماعات التي كان لها من عزمها وقوتها مقدرة على النمو والتقدم نسبياً. وأخيراً أخذت رومة نفسها بالاهتمام بالمشرق والمغرب. ويعود ذلك في رأينا إلى انتشار القرصنة في البحر المتوسط على شكل لم يعهد له مثيل من قبل. وفشلت المحاولات الصغيرة في القضاء على القرصنة إلى أن ولى المجمع القبلي الروماني بومبي أمر محاربة القرصان. وقد نجح بومبي في ذلك فطهر البحر المتوسط بكامله من القرصان في ثلاثة أشهر (سنة ٦٧ق.م.).

عندها ولى المجمع نفسه بومبي أمر تنظيم شؤون المشرق. وبعد أن رتب أمور آسية الصغرى انتقل إلى بلاد الشام. فوصل دمشق وأخذ يعد العدة للاستيلاء على البتراء، لكنه لما وصل إلى أريحا غير اتجاهه وذهب إلى القدس فاحتلها. وهكذا فقد فتح بومبي بلاد الشام (سنة ٦٣ق.م.) وجعلها ولاية رومانية. وكان مما فعله أن سمح لملك الأنباط بالاحتفاظ بدمشق.

وذهب بومبي إلى مصر، هرباً من خصمه يوليوس قيصر، فلحقه هذا. ولما وصل مصر وجد أن بومبي قد اغتيل. وبعد معركة اكتيوم (سنة ٣١ق.م.) التي انتصر فيها اكتافيوس (اغسطس) ضمت مصر إلى الامبراطورية.





الزعامات المحلية في سورية (١٥٧٥ - ١٦٥٠)

تأليف: د. عبد الرحيم أبو حسين

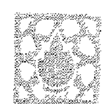
مراجعة: د. حسين سلمان سليمان



□ طرابلس في القرن الماضي (رسم غرانسير).

نادرة للغاية الدراسات الأكاديمية التي تناولت تاريخ الولايات الشامية العثمانية خلال القرون الثلاثة الأولى من الفتح العثماني لتلك الولايات، وأندر منها الباحثون الذين درسوا تاريخ هذه الولايات على ضوء الوثائق المحلية أو العثمانية والأوراق القنصلية الأوروبية. فأبعد دراسة علمية لتاريخ الولايات الشامية العثمانية على ضوء بعض هذه المصادر المهمة التي أشرنا إليها، هي الدراسات التي قام بها. (مع حفظ الألقاب)، جبور عبد النور ودمينيك وشفالية وعبد الكريم رافق وعدنان بخيت وكاتب هذه المراجعة. ويبدو أن زميلنا عبد الرحيم أبو حسين، أبى إلا أن يكون من هذه القلة، فأعد أطروحته لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ الشرق الأوسط من الجامعة الأميركية بعنوان:

«Provincial Leaderships in Syria 1575-1650» (*)



الواقع اننا منذ ما يزيد على السنتين ونحن نتلهف بشدة لنشر هذه الدراسة، إلى أن تفضلت الجامعة الأميركية في بيروت بإصدارها، في سلسلة منشوراتها عن تاريخ الشرق الأوسط. وتألفت هذه الدراسة من مقدمة مزودة بدراسة لأهم المصادر التي عاد إليها المؤلف في إعداد بحثه ومكان تواجدها، ومدى استفادته منها في إطار بحثه، ونخص بالذكر دراسته عن أهمية وثائق دفتر الأمور المهمة العثماني، في كتابة تاريخ الولايات الشامية العثمانية.

وتضمنت هذه الدراسة أيضاً أربعة فصول، عالج في الثلاثة الأولى منها تاريخ الزعامات الشامية الريفية (آل سيفا وآل معن وآل الحرفوش) في حين خصص الفصل الرابع منها لزعامات عائلات فريخ وقانصوه وطربيه، وكل هذه الأسر حكمت اجزاء من الريف الشامي العثماني، ولعبت دوراً بارزاً في تاريخه خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر.

بروز آل سيفا كقوة سياسية

يرى د. أبو حسين أن بروز آل سيفا كقوة سياسية في طرابلس يعود إلى النصف الأول من القرن السادس عشر، وبانهم من أصل تركماني قدموا في عام ١٥٢٨ بقيادة يوسف سيفا من مرعش الواقعة على الحدود السورية الأناضولية، واستقربهم هذا القائد في عكار واتخذ مقراً له في قلعة الحصن التي تسيطر على تلال عكا الوعرة في أقصى شمال لبنان. ونجح يوسف سيفا في إقامة تحالف مع منصور عساف أقوى زعماء بلاد الشام الذي كان مثله من أصل تركماني، واستفاد الأخير من هذا التحالف في تصفية كل أخصامه في المنطقة. وإزاء عجز السلطات العثمانية عن التخلص من منصور عساف، أنشأت عام ١٥٧٩ ولاية طرابلس وجعلت يوسف سيفا والياً عليها برتبة بيلر بك أي أمير الأمراء، كمحاولة منها لتشديد قبضتها على المقاطعات اللبنانية الشمالية (جبة بشري وجبيل والبترون). ومنذ ذلك الحين أخذت سلطة آل عساف تتدهور في المنطقة، في حين أخذت سلطة يوسف سيفا تحل مكانها.

ويرى د. أبو حسين ان اختيار يوسف سيفا ليكون على رأس ولاية طرابلس، إنما كان نتيجة قرار مترو، سواء من حيث انه كان وجهاً سياسياً محلياً، قد يستطيع أن يصمد أمام الوجوه المحلية الأخرى، وكان قد مضى عليه زمن طويل في منطقة طرابلس، اكتسب خلاله مكانة عالية، فارتبط بعلاقة وثيقة مع السياسيين المحليين، بحيث كان متوقعاً منه أن يدير بكفاءة عالية الولاية المعهودة إليه. علماً بأنه لم يكن زعيماً محلياً بالولادة كما كان الحال بالنسبة لآل عساف ومعن، إذ لم يكن قد مضى على تاريخ قدومه إلى المنطقة خمسون سنة، بحيث لم يستطع أن يقيم سلطة تقليدية متوارثة في منطقة طرابلس، كما كان الحال بالنسبة لآل عساف في كسروان وآل معن في الشوف، وبذلك كان عاجزاً عن تأمين ولاء

(*) من منشورات: American University of Beirut, 1985.

عفوي لشخصه ولعائلته بين قبائل وفلاحي المقاطعات الشمالية اللبنانية، ولا يمكن في أي وقت أن يشكل تهديداً محلياً حقيقياً، مما يحصل الباب العالي حراً في تعيينه أو صرفه حين يشاء دون أية خشية من أية مضاعفات محلية جادة. ولم يكن الوضع مشابهاً لذلك في مقاطعات جبل الدروز، حيث كان خصمه ومعاصره فخر الدين المعني الذي كان العثمانيون مضطرون بصورة دائمة إلى القيام بحملات حربية ضده لإبقائه في مكانه الصحيح، والتي غالباً ما تكون فاشلة. في حين كان يوسف سيفا مجرد موظف معين من قبل السلطات العثمانية، ليس له سلطة تقليدية راسخة ولا أتباع خصوصيون ذوو انتماءات عنصرية أو طائفية، مما يدفعه إلى الحرص على استمرار طاعته للإدارة العثمانية المركزية، يبرز ذلك في تكرار عزله وانقطاعه عن مهمته كبيلر بك. كما كان العثمانيون مدركين ان بإمكانهم الوصول إلى يوسف سيفا ومعاقبته في حال تمرده، فمقر إقامته في حصن عكار كان سهلاً الوصول إليه من الداخل الشامي، كما ان الوصول إلى طرابلس عاصمة الولاية لم يكن سهلاً من الداخل فقط ولكن أيضاً من البحر.

حملة ١٥٨٥ العثمانية

ويصحح د. أبو حسين على ضوء المصادر المعاصرة والوثائق العثمانية، ما ورد لدى كتاب الحوليات اللبنانية والمؤرخين المحدثين الذين تصدوا لتأريخ هذه الفترة، بأن الحملة العثمانية التي اجتاحت المقاطعات اللبنانية عام ١٥٨٥ والتي ذهب ضحيتها قرقماز المعني، بأنها إنما كانت بسبب نهب قطاع الطرق في جون عكار لقافلة تحمل ضرائب مصر إلى استانبول. في حين تجمع المصادر المعاصرة بأن القافلة لم يجر نهبها وبأنها وصلت كاملة إلى استامبول، كما ان تلك المصادر تركت لنا تفصيلاً كاملاً لمحتويات القافلة المذكورة. ويستنتج د. أبو حسين على ضوء الوثائق العثمانية، بأن الحملة المذكورة إنما كانت متعمدة، ولم يكن الدافع إليها أي حادث، وإنما كانت جزءاً من حملة مخطط لها ضد زعامات المناطق الشامية الريفية، ذلك أن توفر البنادق الحربية بعيدة المدى بين أيدي هؤلاء الزعماء دفعتهم إلى التمرد على السلطات العثمانية، مما جعل تلك السلطات تتدخل عسكرياً في تلك المناطق التي كانت قد خرجت عن سيطرتها أو تلك التي لم يسبق مطلقاً أن أقامت عليها سيطرتها المباشرة. ونجحت حملة ١٥٨٥ بتحقيق كامل أهدافها، بحيث تمكنت من أسر جميع الزعامات المحلية، باستثناء قرقماز المعني الذي مات في مخبئه.

ولم تشر المصادر المتوفرة متى رضيت السلطات العثمانية على يوسف سيفا، والسنة التي أعادته إلى منصبه السابق كوال برتبة بيلر بك على طرابلس، ولكن تشير أحداث ١٥٩٠ إلى صدام بين يوسف سيفا بصفته والياً على طرابلس، ومحمد عساف ملتزم غزير، قضى خلاله الأخير وانقطعت سلالته، وانتقلت إقطاعاتهم في غزير وانطلياس وبيروت إلى آل سيفا.

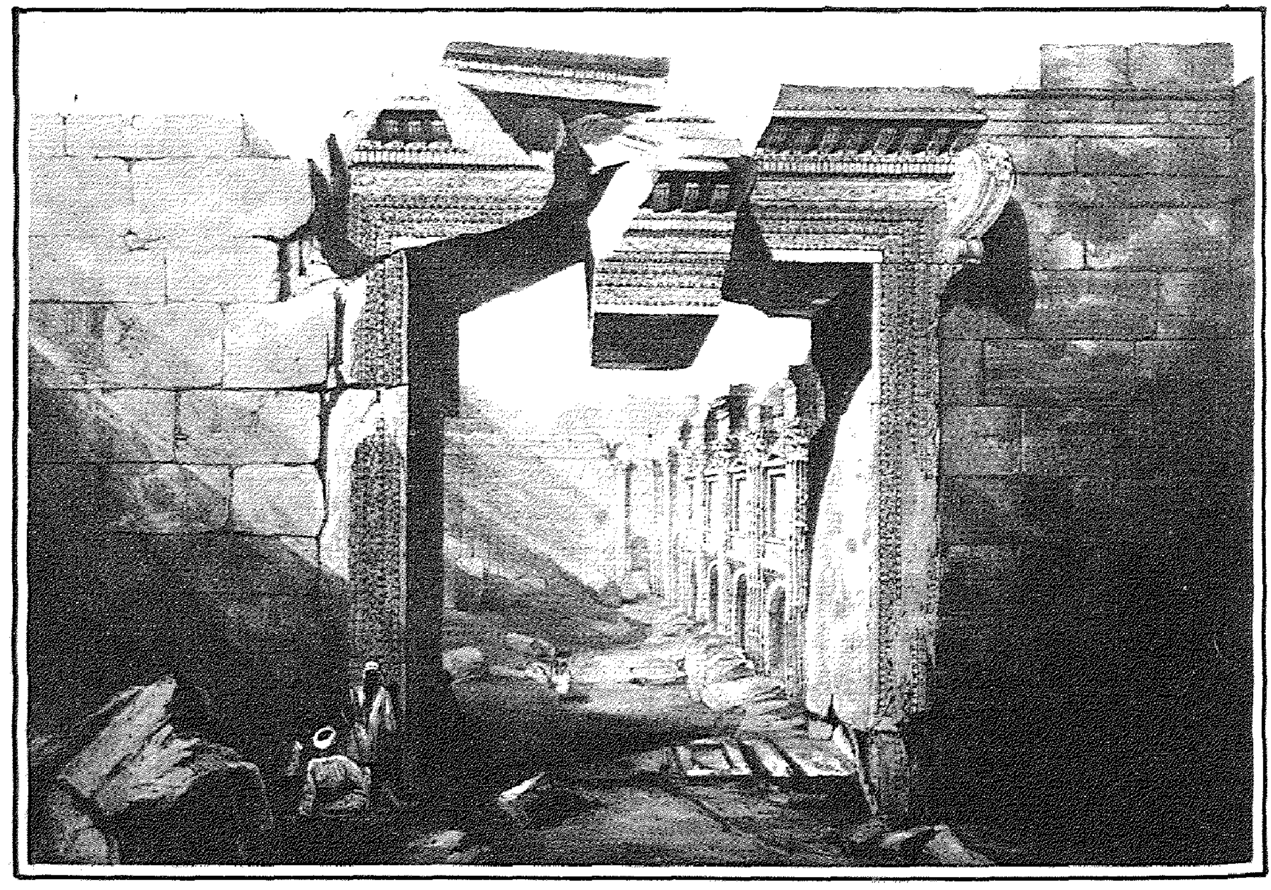
وكان يوسف سيفا مدركاً أن السلطة السياسية التي حازها في بلاد الشام، إنما تعود أولاً إلى استمرار تعيينه في منصب بيلر بك طرابلس، كما ان استمراره في السلطة إنما كان يتوقف على استمرار ولائه للعثمانيين ومقدار هذا الولاء، مما كان يضعه في موقف حرج إزاء الزعامات الشامية التي كانت تنظر إليه على أنه موظف عثماني. هذه الزعامات المحلية مثل المعنيين وآل حرفوش ممن استمدوا سلطتهم نظراً لأنهم أسر محلية متعاقبة بغض النظر عن أي منصب رسمي قد يكونوا تولوه، فلذا فقد كان يكفيهم أن يتملقوا الباب العالي العثماني. لكن وضع يوسف سيفا كان مخالفاً لذلك، فقد كان مضطراً ان يظهر باستمرار جدارته وأهليته كبيلر بك، بقتال أعداء السلطان العثماني في بلاد الشام، الذين كانوا زعامات محلية ثابتة. ويبدو أن هذا هو السبب الذي جعله يطلب من الباب العالي، أن يعينه أميراً على عساكر بلاد الشام «سردار» لقتال علي باشا جانبولاد عام ١٦٠٦. حقيقة ان الهزيمة المنكرة التي لحقت به في تلك المناسبة، لم تعزز موقعه سواء لدى الباب العالي أو بين رعاياه في ولاية طرابلس إذ أكدّت على الأرض وجهة نظر الباب العالي بأنه رجل لا يمكن أن يشكل أي خطر على الحاكم العثماني في بلاد الشام، ومما لا شك فيه أن هذا

هو السبب الذي جعله يستمر في منصبه بصفة بيلر بك ولاية طرابلس حتى وفاته. إذ ان الباب العالي كان مقتنعاً بأنه مهما بلغ ضعف يوسف سيفا، فإنه يبقى الرجل الموالي للدولة. وهذا هو السبب الذي عزز مكانته في ولاية طرابلس، وخاصة في مدينة طرابلس نفسها حيث كان السكان من السنة، شديدي الولاء للسلطان العثماني بصفته زعيم دولة الإسلام، ولذا فقد كان يوسف سيفا يكسب سياسياً من الوقوف باستمرار إلى جانب القضية العثمانية.

مجاملة يوسف سيفا للزعامات الشامية المحلية

وفي حين ظل يوسف سيفا خادماً أميناً للسلطان العثماني، فقد توجب عليه إقامة كل أنواع المجاملات مع الزعامات الشامية المحلية لكي تكون علاقته جيدة معهم. فعلى أثر هزيمته أمام علي جنبلاط آثر أن يسالم الأخير وأن يصاهره، على أمل أن تؤدي هذه الخطوة إلى التسليم به محلياً كزعيم محلي بين بقية الزعامات المحلية، وأن يرسخ أسرته على أنها سلالة حاكمة من أصل محلي في الريف الشامي، حيث انها في الواقع ليست كذلك، لعل ذلك قد يساعده في المستقبل أن يستقل نسبياً عن الباب العالي. ولهذا الغرض الأخير سعى يوسف سيفا أن يقيم بعض تحالفات مع عناصر محلية، على أمل أن تمكنه هذه التحالفات من تقوية مكانته في المنطقة، كما من شأنها أن تضعف الزعامات المحلية المجاورة التي كانت على عداوة معه، ووجد يوسف سيفا هؤلاء الحلفاء من بين أخصام أعدائه وعلى الأخص الزعامات الدرزية المعادية لفخر الدين.

وبنتيجة هذه التحالفات المحلية التي أقامها يوسف سيفا منذ السنوات الأولى من القرن السادس عشر، تحول تماماً إلى شامي بحيث أن سلوكه السياسي كان يماثل تماماً باقي الزعماء المحليين، باستثناء وحيد هو أن يوسف سيفا لم يكن يتمتع بتأييد محلي على غرار باقي الزعماء الشاميين.



□ بعلبك ١٨٣٤ ــ ليدي لويزا تنيزون.

وأثارت تحالفات يوسف سيفا ومحاولاته لجعل نفسه زعيماً سياسياً محلياً في بلاد الشام، مخاوف العثمانيين، فعزل من منصبه في عام ١٦٠٧، لكن ذلك لم يؤد إلى إضعافه نهائياً، فسعى إلى تحسين علاقته بالمعنيين، وذلك بالقتال إلى جانبهم في حوران عام ١٦١٣. لكن هذه العلاقة الحسنة لم تستمر طويلاً، فقد جرد والي دمشق أحمد باشا الحافظ حملة لقتال المعنيين في عام ١٦١٣، وهي الحملة التي أجبرت فخر الدين على الفرار إلى توسكانا. فانحاز يوسف سيفا إلى جانب العثمانيين وأبدى نجله حسين كفاءة عالية وحماساً شديداً في قتال المعنيين. فكان لتلك المساعدة صدى طيب لدى السلطات العثمانية، فكوفىء حسين يوسف سيفا على ذلك بتعيينه والياً على طرابلس في عام ١٦١٤، ولم يرد هذا التعيين لدى الخالدي ولا الدويهي ولا الغزي، ورغم أن يوسف سيفا لم يكن يحمل أية صفة رسمية، ولكنه كان في الواقع يمارس سلطة فعلية في ولاية طرابلس، في حين كان ابنه حسين يحمل اللقب.

لكن حدوث تغيرات في استامبول ودمشق كانت نذير نحس على آل سيفا، فعزل حسين سيفا من منصبه في أوائل عام ١٦١٦ وعين بدلاً عنه حسين باشا الجلالي: وكمحاولة من حسين سيفا لاستعادة حظوته لدى الأخير انضم إلى الحملة التي كان يعدها على فارس. لكن هذه البادرة لم تنقذ حسين سيفا، فقد تلقى الباب العالي شكاوى كثيرة ضده، دفعته إلى أن يأمر بقتله وإرسال رأسه إلى الآستانة، ونفذ الأمر في ٢٢ آذار ١٦١٧ رغم العروض المالية السخية التي وعد بها والده يوسف.

انتقام فخر الدين من آل سيفا

وفي كانون الأول ١٦١٧ عاد فخر الدين من منفاه الطوعي إلى جبل الدروز، ورغم ان آل سيفا لم يكونوا وحدهم من بين الزعامات الشامية التي انضمت إلى حملة والي دمشق الحافظ باشا، التي كانت قد أجبرت فخر الدين على الفرار إلى إيطاليا، فقد كانت مخاوفهم أكثر من غيرهم بسبب هذه العودة، بسبب الأضرار البالغة التي ألحقوها في الشوف موطن آل معن، عن طريق نهب وإحراق القرى هناك. ولذا لم يكن غريباً أن يبادر فخر الدين إلى الانتقام من اخصامه.

ولا يشير د. أبو حسين في أية سنة وكيف استبدل والي طرابلس حسين باشا الجلالي بـ يوسف سيفا، وإنما جاء في ص ٤٣ السطر الثاني من المقطع الأول عن عزل يوسف سيفا من ولاية طرابلس في ١٠٢٨هـ/١٦١٨ ــ ١٦١٩ وتعيين عمر باشا كيتانجي بدلاً عنه. وكان الأخير عاجزاً عن مد سلطته على كل أجزاء ولاية طرابلس حتى ان هذه السلطة لم تكن تمتد إلى أبعد من حدود مدينة طرابلس، فاستفاد من هذا الوضع فخر الدين وعرض على الباشا مساعدته في التعامل مع يوسف سيفا، فرحب بالعرض وطلب منه قتال الأخير، وبالفعل نجحت القوات المعنية في إجبار يوسف سيفا على الفرار من حصن عكار إلى حصن الأكراد حيث تحصن مع حلفائه الدروز: في حين فرض فخر الدين حصاراً على الحصن، لكنه اضطر إلى رفع الحصار، نتيجة تدخل واليي حلب ودمشق، اللذين وجدا في النزاع المعني السيفي فرصة لتحقيق مكاسب مالية، كان لها دورها (المكاسب المالية) أيضاً في استصدار فرمان في ربيع الثاني ١٠٢٨/آذار ــ نيسان ١٦١٩، بإعادة تعيين يوسف سيفا والياً على طرابلس.

ورغم عودة يوسف سيفا والياً على طرابلس، فإنه كان يواجه مشاكل مالية خطيرة في ذلك الوقت، بحيث اضطر إلى الاعتراف بتلزيم ناحيتي جبيل والبترون إلى الأمير فخر الدين لمدة أربع سنوات، مقابل تسديد الأخير المبالغ التي تعهد بدفعها يوسف سيفا لسلطات الآستانة لجعل فخر الدين يفك الحصار عن حصن الأكراد. واستفاد الأخير من الأزمة المالية عن طريق عرض مبالغ مرتفعة على الاستانة، مقابل عزل يوسف سيفا من منصبه، بحيث كان الأخير يضطر إلى عرض مبالغ أكبر من أجل تثبيته، ولكن حين حان موعد التسديد عجز عن الدفع، فصدرت أوامر إلى فخر الدين في شعبان ١٠٣٠/حزيران ــ تموز ١٦٢١ بجباية الأموال المتأخرة عن ولاية طرابلس.

وإذا تمكن يوسف باشا سيفا وللمرة الثالثة من استرضاء سلطات الآستانة لكن ذلك لم يخلصه من فخر الدين، ذلك أن الأخير كان قد قرر الانتقام من خصمه وضرب ما له من مكانة ونفوذ في الشام، عن طريق إغراء بعض أمراء آل سيفا ومحالفي يوسف سيفا من الزعامات الشامية بالتخلي عنه والوقوف إلى جانب الأمير المعني، وكذلك عن طريق السيطرة بوسائل مختلفة على جانب كبير من المقاطعات والأملاك الخاضعة لالتزام الباشا. وهذا العامل الأخير مهم للغاية لأن النجاح في تنفيذه من شأنه زعزعة وضع يوسف سيفا المالي، مما يجعله عاجزاً عن تسديد العائدات التي تعهد بدفعها إلى الاستانة في حين من شأن هذا العامل زيادة البحبوحة المالية التي كان ينعم بها فخر الدين، ومضاعفة عدد الأتباع الخاضعين له والمستعدين للقتال إلى جانبه عند اللزوم، وهما أمران مهمان للغاية بالنسبة لفخر الدين في صراعه السياسي مع يوسف سيفا لانتزاع ولاية طرابلس منه. ففي كل مرة كان يصدر فرمان بعزل يوسف سيفا عن ولاية طرابلس، كان يمتنع عن التنفيذ ويتخذ إجراءات عسكرية لمنع الوالي المعين من دخول عاصمة الولاية وتسلم مهام منصبه، إلى حين تمكن معاونه الموجود في الاستانة من استرضاء السلطات العثمانية مقابل بذل وعود بدفع مالية باهظة، فتصدر أوامر بإعادة تثبيت يوسف سيفا في منصبه، لكن الأخير نادراً ما كان يسدد الأموال التي تعهد بدفعها. وخلال هذه الأزمات كان كلا الطرفين، أي يوسف سيفا والسلطات العثمانية، بأمس الحاجة إلى مساعدة فخر الدين، لكن الأخير لم يكن يتحرك وفقاً لما تمليه عليه مصالحه. فمنذ عودة فخر الدين من منفاه في كانون الأول (ديسمبر) ١٦١٧ وحتى ٢٢ تموز ١٦٢٥ وهو تاريخ وفاة يوسف سيفا، عزل الأخير من منصبه وأعيد إليه خمس مرات.

تفكك الأسرة السيفية

وبغياب يوسف سيفا الذي خلال حياته كانت وحدة الأسرة السيفية يشوبها الغموض، وخاصة خلال الفترة التي سبقت نهايته، كان من الطبيعي أن تتفكك الأسرة كليا بعد غيابه، فإذا كان أبناء المؤسس قد اتفقوا عند وفاة والدهم على تقسيم أملاكه فيما بينهم، دون أن يكون للباب العالي أي شأن في ذلك، فقد نجح الأخير بمعاونة فخر الدين المعني من توجيه ضربة لهؤلاء الأبناء كادت أن تقضي عليهم، وأعاد سلطته إلى مقاطعات الولاية، ففي خلال الفترة الممتدة من ١٦٢٥ ــ ١٦٢٧ تسلم إدارة الولاية ثلاثة ولاة عثمانيين، إلى أن نجح فخر الدين المعني بالحصول عليها واستمر بإدارتها إلى حين سقوطه في ١٦٣٣.

وأتاح سقوط فخر الدين لآل سيفا، فرصة العودة مجدداً إلى مسرح الحياة السياسية في بلاد الشام، لكن هذه العودة كانت قصيرة غيرناضجة، نتيجة الانقسام الداخلي الذي نشب بين أفراد البيت السيفي، مما جعلهم عاجزين عن ممارسة مهامهم. فخلال سنتين من حكمهم ١٦٣٥ ــ ١٦٣٦، عانت مدن وقرى مقاطعات ولاية طرابلس من الانتقال الداخلي بين هؤلاء الأمراء، مما دفع سلطات الاستانة إلى التخلي عن سياسة الاستعانة بأمراء البيت السيفي ليكونوا حكام ولاية طرابلس، واكتفت بتقسيم مقاطعات الولاية فيما بينهم يخضعون لسلطة بيلر بيك يقيم في العاصمة طرابلس، لكن هذه السياسة لم توقف العداوة والاقتتال الداخلي بين أفراد البيت السيفي، الذي ألحق الخراب والتدمير بمدن وقرى الولاية، ورغم الشكاوى العديدة التي وردت إلى الاستانة بحق الأمراء المذكورين، لم تكن السلطات العثمانية راغبة في القضاء عليهم. وإنما فقط «شد آذانهم» وتحذيرهم بالكف عن أعمالهم الوحشية وإلا فسوف تضطر إلى تصفيتهم، لكنهم لم ينصاعوا إلى هذا التحذير، مما دفع السلطات العثمانية تكليف الوالي الجديد برجل أحمد باشا بتصفية وجود آل سيفا في ولاية طرابلس.

صورة آل سيفا

ومما ينبغي الإشارة إليه أن صورة آل سيفا في المصادر التاريخية قد شابها التباين، ففي حين يشير المؤرخون الشاميون إلى أن آل سيفا عرفوا بكرمهم ورعايتهم للشعراء والمتصوفين، وانه

لم يخرج عن هذه القاعدة سوى حسين سيفا الذي عرف بقساوته المتناهية الشدة. نجد المؤرخ العثماني نعيمة يصف يوسف سيفا بالقاتل الذي أرعب الأهالي ليبتز منهم أموالهم، كما أشار الرحالة الإنجليزي (Sandys)، الذي زار بلاد الشام عام ١٦١٠، بأن يوسف سيفا كان مكروهاً من الأهالي بسبب مظالمه الشديدة.

ويؤخذ على آل سيفا انهم لم يوجهوا اهتمامهم الشديد من أجل تطوير اقتصاد ولايتهم أو مدينتهم طرابلس، كما فعل فخر الدين في الوقت نفسه في بيروت وصيدا وعكا وبلاد جبل الدروز وسنجق صيدا. كما جاء فعلاً في المصادر التاريخية ان فخر الدين حين اسندت إليه مهام ولاية طرابلس بعد ١٦٢٧، قام بزرع ما يقارب ١٢ إلى ١٤,٠٠٠ نصبة توت لزيادة إنتاج الحرير، في حين لا يوجد أية إشارة إلى قيام يوسف سيفا بعمل مماثل في طرابلس، كما لا توجد أية إشارة إلى اهتمام أبداه أي من أمراء آل سيفا من أجل إنتاج الصابون في طرابلس، رغم ان الصابون كان من أهم محاصيل الولاية. بالإضافة إلى كل ذلك كان بإمكان طرابلس تحت إدارة آل سيفا أن تتنافس بسهولة كميناء، مع بيروت وصيدا وعكا التي كانت خاضعة للحكم المعني، وعلى الأخص إمكانية الوصول إليها بسهولة من الداخل الشامي. ولكنها في الواقع لم تلعب هذا الدور، ويعود جانب من ذلك أن آل سيفا لم يحاولوا القيام بأي عمل لتطوير تجارتها، وإنما بالعكس فمن المعروف أنه كان من نتائج ممارستهم، إعاقة التجار الأجانب من القيام بتبادل التجارة مع طرابلس.

اما من حيث القاعدة العسكرية التي اعتمد عليها آل سيفا في فرض سلطتهم في مقاطعات عكار وولاية طرابلس، فنظراً لعدم تزويد العثمانيين لآل سيفا بقوات نظامية لتكون تحت تصرفهم لكونهم معينين بصفة ولاة، فقد لجأوا إلى استثمار قوات مأجورة من السكبان، كانت متواجدة في كل أنحاء بلاد الشام، ومستعدة لتقديم خدماتها لأي زعيم أو حاكم إقليمي قادر على الدفع لهم. كما كان واضحاً أيضاً ان آل سيفا كانوا يجدون المساعدة العسكرية من بين انكشارية دمشق، وكذلك من بين قبائل البدو الخاضعين لحكمهم، كقبيلة بني الفضل في عكار وحمص، وأمراء رأس نحاش الأكراد الذين كانوا حلفاء لآل سيفا في طرابلس.

ويبدو انه لم يكن لآل سيفا قاعدة سلطة محلية في منطقة طرابلس، على اعتبار انهم في الأصل من التركمان الغرباء عن تلك المنطقة. ومهما يكن الدعم العسكري المحلي الذي نعموا به في المنطقة التي حكموها، فلم يكن ذلك أكثر من اغتنام فرصة.

وبمجرد تصفية آل سيفا من المنطقة، فقد أغفل ذكرهم تماماً، لكن لا يمكن أن نقول ذلك عن بقية الزعامات المحلية الشامية ذات الجذور الراسخة.

الزعامة المعنية

يتصدر الفصل الذي خصصه د.أبو حسين للحديث عن الزعامة المعنية، دراسة عن طبيعة الزعامة الدرزية في جبل الدروز، فيشير بأن تاريخ استقرار آل معن في الشوف إنما يعود إلى فترة زمنية أطول بكثير من الفتح العثماني لبلاد الشام، وبان الزعامة المعنية لم يكن معترفاً بها لدى كل دروز جبل الدروز، كما لم يكن كل الشوف تحت حكمهم، ويرجح أن يكون المعنيون قد حكموا الجزء الذي أطلقت عليه الوثائق العثمانية، لسنوات ١٥٢٣ و ١٥٣٠ و ١٥٣٤، اسم «شوف ابن معن». كما وصفت وثيقة عثمانية قرقماز معن على انه مقدم الدروز، ولذا فإن لقب أمير الذي أطلقته المصادر المحلية لا يعني منصباً رسمياً في الخدمة العثمانية، وإنما مجرد تقليد محلي. وبخلاف ابنه فخر الدين لم يترق قرقماز في الخدمة العثمانية إلى رتبة بيك أو أمير، إنما كان مجرد ملتزم أو جابي ضرائب في بلاد الشوف، في حين تمتعت أسر محلية أخرى بلقب «مقدم» مثل آل أبي اللمع في كفرسلوان وآل الصواف في الشبانية، والمقدم زعيم محلي معين على وحدة أميرية محدودة ومكلف بجباية الضرائب المحلية، ولقب أمير الذي أطلق على بعض المقدمين، كما هو الحال في قضية الوجيه قرقماز المعني، إنما



□ الأمير فخر الدين المعني الثاني الكبير.

يعكس بروز عائلات المقدمين لمدة طويلة بين أبناء محلتهم أو ضمن جماعتهم، وليس نتيجة تعيين رسمي لهذه الرتبة أو اللقب.

كمّا تواجد إلى جانب لقب مقدم لقب شيخ، وهو يشير إلى وجيه أو صاحب منصب ديني أو زعيم قبيلة، ونماذج المشايخ التي كانت موجودة بين الدروز والموارنة والشيعة، تشير إلى أن نموذج الشيخ الزعيم غالباً ما كان من النوع شبه القبلي. وبانه كان لمشايخ الدروز أتباع محازبون مما جعلهم يلعبون أدواراً مهمة وفاعلة في السياسة المحلية.

ويعيد د. أبو حسين جذور الصراع اليزبكي ـ الجنبلاطي إلى بداية القرن السابع عشر، وهي حزبية برزت فيما بعد في القرن الثامن عشر ولا زالت قائمة إلى أيامنا هذه وبأن المعنيين لم ينعموا بنموذج الزعامة الوحيدة التي يلتف حولها الجميع في المجتمع الدرزي، فقد كان هناك أيضاً مقدمون ومشايخ يمارسون نوعاً من السلطة على أتباعهم وأبناء محلتهم. كما ينفي د. أبو حسين ما ورد لدى مؤرخي عصرنا الحديث هولست ورافق وبخيت عن وجود انقسام قيسي ـ يمني بين الدروز أيام فخر الدين، وبأن أياً من المؤرخين المعاصرين لم يشر إلى أن يوسف سيفا يمني، كما لم يصف أحداً فخر الدين بأنه قيسي.

توتر العلاقات المعنية ـ العثمانية

ويشير د. أبو حسين بأن العلاقات المعنية ـ العثمانية قبل فخر الدين قد شابها التوتر، وينفي ما ورد لدى المؤرخين المتأخرين عن وجود فخر الدين المعني الأول أثناء الفتح العثماني لبلاد الشام، ففي خلال هذه الفترة كان يحكم الشوف ثلاثة حكام معنيين هم، قرقماز بن يونس وعلم الدين سليمان وزين الدين، وقد كان لهؤلاء دور في ثورة ابن الحنش عام ١٥١٨. وفي عامي ١٥٢٣ و ١٥٢٤ أغار والي دمشق على الشوف الحيطي لقمع تمرد حصل هناك فأحرق عدداً كبيراً من القرى ونقل إلى دمشق ثلاثة أحمال رؤوس، وعين سباهية من قبله لحفظ الأمن وجباية الضرائب، تمكنوا من القيام بالمهام الموكولة إليهم حتى مطلع النصف الثاني من القرن السادس عشر. لكن حيازة الدروز الأسلحة النارية بعيدة المدى، التي زودتهم بها بعض القوى الأوروبية المهتمة بخلق الاضطرابات للعثمانيين في بلاد الشام، ساعدتهم عام ١٥٦٥ على التمكن من طرد بعض السباهية وقتل البعض الآخر، وحين حاول العثمانيون قمع التمرد المذكور منيت عساكرهم بهزيمة في عين دارا. ومنذ ذلك الحين وحتى عام ١٥٨٥ فشلت كل المحاولات التي بذلتها السلطات العثمانية لتجريد الأهالي من السلاح وإجبارهم على دفع الضرائب العائدة للدولة، إلى أن كان عام ١٥٨٥ حين قاد إبراهيم باشا والي مصر حملة قوية اجتاحت جبل الدروز، فاضطر قرقماز المعني إلى الفرار إلى كهف حيث توفي هناك. وهذا هو السبب الحقيقي الذي أدى إلى نهاية قرقماز وليس وفقاً لما ورد لدى المؤرخين المتأخرين، عن نهب اللصوص في جون عكار لقافلة «خزنة مصر»، نقلاً عن الدويهي الذي أورد تفاصيل هذه الحادثة مشوشة، ويفسر د. أبو حسين أسباب هذا التشويش.

ترقية فخر الدين من رتبة مقدم إلى أمير

وبعد خمس سنوات من وفاة قرقماز خلفه فخر الدين بصفة مقدم على الشوف، فتحالف مع عدد من الزعامات الشامية وبذل كل الجهود الممكنة من أجل بناء قواه العسكرية، كما اهتم بكسب ولاء السلطات العثمانية في ولاية دمشق. ولذا فعند وصول والي دمشق الجديد مراد باشا إلى ميناء صيدا في ١٠٠١/١٥٩٢ ـ ١٥٩٣، رحب به فخر الدين بحرارة وقدم له هدايا قيمة، فأحال مراد باشا سنجق صيدا إلى فخر الدين، وبذلك رقي فخر الدين من مجرد مقدم على الدروز إلى سنجق بك أو أمير لوا.

ولاحظ العثمانيون قدرات فخر الدين العسكرية، فاعترفوا به زعيماً درزياً أعلى، وفي ١٦٠٢ عين بصفة سنجق بك صفد، وبذلك صار دروز السنجق يخضعون لسلطته، كما تواجد الشيعة إلى جانب الدروز وكانوا موضع خشية السلطات العثمانية منذ نشوب الحرب العثمانية ـ الفارسية عام ١٥٧٨، ومن الممكن أن يكون تعيين فخر الدين بهدف تجنيب السلطات العثمانية من مشكلة التعامل المباشر مع الشيعة، فبدلاً من تعيين حاكم عثماني لهذه الغاية، يمكن لفخر الدين الاعتماد على أتباعه الدروز لضبط الشيعة في تلك المنطقة، واستطاع خلال حكمه لصفد أن يعيد إليها الازدهار الذي فقدته.

واستفاد فخر الدين من انغماس العثمانيين في غمار حرب على الجبهتين الشرقية والغربية، فعمل على تقوية نفسه بحيث يكون حاكماً شبه مطلق الصلاحية في البلاد الخاضعة لسلطته، كما

اقتنص هذه الفرصة أيضاً لبناء جيش قوي عناصره من السكبان، وتحصين القلاع المتواجدة في البلاد الخاضعة لسلطته. هذه الحرب، وشراء فخر الدين لموظفي الدولة،من الصدر الأعظم إلى أقل آغا،بالهدايا الوفيرة التي كان يكسبها من اتباع السلطان، هما السبب في تركه من العثمانيين يفعل ما يشاء.

أما عن الأسباب التي جعلت فخر الدين ينضم بقواته إلى المتمرد علي باشا جانبولاد في ١٦٠٧، فليس نتيجة عدم اعتباره للسلطات العثمانية، ولكن بسبب تعيين خصمه يوسف سيفا قائداً أعلى للقوات العثمانية في بلاد الشام المتوجهة لقتال علي جانبولاد، ولم ينضم إلى الأخير إلا بعد الانتصار الذي أحرزه: حيث رأى ان الانضمام الآن يمكنه من ضم بيروت وكسروان إلى ممتلكاته. وحين تمكنت السلطات العثمانية من سحق تمرد علي جانبولاد، رفض الوزير العثماني المنتصر مراد باشا الاقتصاص من فخر الدين بناء لطلب أعيان دمشق، بسبب العلاقة الودية التي كانت تربطهما منذ أن كان الباشا المذكور والياً على دمشق.

وبالنسبة للصدام الأول لفخر الدين مع العثمانيين فيعود ذلك لأسباب إقليمية وشخصية أورد ذكرها الخالدي، إلى جانب تطورات دولية ينبغي الإشارة إليها، فقد وقَّع فخر الدين معاهدة رسمية مع توسكانا، وفي الوقت نفسه كان العثمانيون في حالة سلم مع القوى الأوروبية، وكذلك في حالة سلم مع الفرس ووقَّعوا معهم معاهدة في ١٦١٢، كما كانوا قد تمكنوا من تدمير العديد من حالات التمرد في الأناضول، وبصورة عامة المتمردون الذين يطلق عليهم الجلاقي. هذه الظروف أعطت العثمانيين حرية أوسع للنظر إلى أمور بلاد الشام، وأن يقسوا في التعامل مع الزعامات المحلية، من العاملين في خدمة الدولة، ممن بدأوا يظهرون العصيان، أمثال فخر الدين.

لجوء فخر الدين إلى ايطاليا

وحين أدرك فخر الدين أن معظم القيادات الشامية المحلية قد تخلت عنه رغم التحالف القائم بينه وبينهم، وحتى أولئك الذين قد أمدهم بالمساعدة العسكرية قبل الحملة العثمانية، القادمة لقتاله، بوقت وجيز، قرر تجنب الصدام مع العثمانيين بمغادرة البلاد. وهذا دليل على هشاشة التحالفات التي أقامها الأمير المعني، واستمرارية مرونة السلطة العثمانية بالرغم من استمرار الانهيار في سلطة الدولة، ومحاولة من السلطة العثمانية لتأكيد سلطتها على بلاد الشام، حين تعرضت هذه السلطة للتهديد الفعلي، كما أثبت للسكبان فخر الدين أن العمل الذي بإمكانهم تأديته بنجاح هو مضايقة الزعامات المحلية، أما في مواجهة العثمانيين فأثبتوا أنه لا يمكن الاعتماد عليهم.

وبرحيل فخر الدين إلى ايطاليا، سلخت السلطات العثمانية سنجقي صيدا — بيروت وصفد وناحية كسروان من ولاية دمشق واستحدثت منهم ولاية صيدا، وعينت حسن باشا البستاني والياً في جمادي الأول ١٠٢٣/حزيران — تموز ١٦١٤، الذي أصدر أمراً إلى حسن المعني بتعيينه ملتزماً على الشوف، وبهذا التعيين يكون حسن المذكور قد جرد من سلطته الشرعية، وتحول من معين من قبل السلطة الرسمية إلى معين من قبل حكومة الولاية، وبذلك خفضت مرتبة آل معن إلى حجمهم الأصلي كملتزمي جباية في الشوف. لكن الولاية الجديدة لم تستمر طويلاً فقد صرف البستاني باشا من منصبه في أوائل عام ١٦١٥، وعادت السناجق المكونة لها إلى نطاق ولاية دمشق.

وهناك حقيقة هامة ينبغي الإشارة إليها، إن غياب فخر الدين في توسكانة، الذي استمر خمس سنوات، دفع إلى السطح التركيب السياسي للمنطقة التي كانت سابقاً خاضعة لحكمه، ونعني بها المنطقة المحصورة بين سنجقي صيدا — بيروت وصفد، ففي سنجق صيدا — بيروت برز بالقوة على المسرح السياسي زعماء سياسيون دروز من غير المعنيين، معظمهم من المعارضين لهم، نجحوا في معارضة آل معن بصفتهم أصحاب السيادة العليا في المجتمع الدرزي. وفي سنجق صفد عادت إلى البروز زعامات شيعية كان فخر الدين قد نجح ظاهراً في تخفيض شأنها وقمعها، لتحاول إعادة تنظيم مجتمعها السياسي، ولضم قواها إلى يونس الحرفوش

الزعيم الشيعي صاحب السيادة في بعلبك والبقاع.

وفي عام ١٠٢٤/١٦١٥ كان المعنيون قد أصبحوا في غاية الضعف، فأعيد تعيينهم على سنجقي صيدا ــ بيروت وصفد، وإعادة التعيين هذه كانت قد أصبحت ممكنة بعد التغيرات السياسية التي حدثت في دمشق واستامبول معاً. فقد عزل خصم آل معن أحمد باشا الحافظ من ولاية دمشق في ربيع أول ١٠٢٤/نيسان ١٦١٥، أما في استامبول، فقد استبدل الصدر الأعظم الذي أمر بالحملة التي أجبرت فخر الدين الفرار إلى ايطاليا، بآخر يدعى محمد باشا القبودان. وفي هذه الأثناء عادت العداوة العثمانية الفارسية لتظهر من جديد في أوائل ١٦١٥، وقام محمد باشا نفسه بقيادة الجيش العثماني إلى جبهة الحرب. وبذلك صارت السلطات العثمانية بأمس الحاجة إلى مشاركة كل القوات الموجودة في بلاد الشام، ممن شاركت في الحملة على الإمارة المعنية، على الجبهة الفارسية، وبدلاً من الهجوم الذي يضعف المعنيين ويكبلهم، باشر العثمانيون المفاوضات معهم. وتم تلزيم سنجقية صيدا للأمير علي وسنجقية صفد للأمير يونس مقابل تهديم قلعتي الشقيف وبانياس، ومع ذلك واجه المعنيون تمرداً درزياً خطراً في جبل الدروز، كان يلقى الدعم والتأييد من يوسف سيفا، ورغم ذلك تمكن المعنيون من قمع هذا التمرد واستعادوا بيروت وكسروان، كما واجهوا معارضة من بعض الزعامات الدرزية التي كانت حليفة لهم، لكن عودة فخر الدين من المنفى عام ١٦١٨ أخمدت تحركهم، الذي كاد يتخذ شكل التمرد العلني، كما ان هذه العودة كان لها دور فعال في الحد من التحرك الشيعي المضاد لآل معن، وإكراه المنشقين الدروز والشيعة على المساهمة في حملاته العسكرية.

عودة فخر الدين من المنفى

ومهما يكن من أمر، فإن إنجازات فخر الدين بعد عودته من إيطاليا، تمتد إلى أبعد من تثبيت سلطته وسلطة الأسرة المعنية بشكل عام في منطقة تقليدية تحت إدارته. فبعد ١٦١٨ كان هناك توسع إقليمي مثير لسلطته في كل الاتجاهات، فاستخدم حججاً متعددة للتعدي، خطوة أثر خطوة، على أراضي آل سيفا، وأحياناً كان يلجأ إلى ذلك عن طريق مساعدة باشاوات معينين ليحلوا مكان يوسف سيفا في طرابلس، وفي أحيان أخرى كان يلجأ إلى ذلك تحت حجة الضغط لتسديد ديون، إضافة إلى أنه في أحيان أخرى كان يتدخل في الخلافات التي تنشب في الأسرة السيفية ليمد سلطته على حساب آل سيفا، وبهذه الوسائل تمكن من التزام جبيل والبترون وسيطر على منطقة صافيتا وعكار، واحتل لفترة وجيزة طرابلس وعين حاكماً من قبله على بشري.

وبالرغم من ان كل الزعامات الشامية قد انفضت عن المعنيين أثناء حملة أحمد باشا الحافظ، لكن يونس الحرفوش تميز عنها جميعاً بسعيه إلى إضعاف آل معن عسكرياً، بالرغم من ان كل الإنجازات السياسية التي أقامها إنما كانت نتيجة تحالفه مع آل معن. وبعودة فخر الدين من المنفى ساءت علاقته مع الأسرة الحرفوشية نتيجة لسياسته التوسعية، فقد اعتبر أمير الدروز هؤلاء أتباعاً له، لكن لم يبدو على الآخرين الاعتراف بهذه السيادة. نشب بين الأسرتين نزاع، كانت خلاله الأسرة الحرفوشية تجد تأييداً من سلطات دمشق، ورغم ذلك فقد نجح فخر الدين في غزو آل الحرفوش في عقر دارهم في البقاع فنهب قراهم وصادر إنتاجهم الزراعي ومواشيهم. فكان رد فعل سلطات دمشق إحالة التزام سنجق صفد إلى يونس الحرفوش، ورفض كل العروض المالية المغرية التي تقدم بها فخر الدين. لكن بحدوث تطورات سياسية في استامبول، صدر فرمان بإعادة آل معن إلى سناجقهم القديمة صفد وعجلون ونابلس، لكن سلطات دمشق اعتبرت الفرمان السلطاني مزوراً.

ورغم ان والي دمشق مصطفى باشا لم يكن راغباً في أن يكون طرفاً في النزاع القائم بين الانكشارية المحلية والزعماء المحليين، كالنزاع بين كرد حمزة والحاج كيوان ونزاع يونس الحرفوش وفخر الدين، فقد سيطرت عليه انكشارية كورد حمزة وجعلوه العوبة في أيديهم. وحين تنامى إلى فخر الدين أن قوات والي دمشق

ومعهم يوسف الحرفوش وعمر سيفا قد أقاموا معسكراً عند ميسلون في طريقهم إلى البقاع، تحرك بقواته من قب الياس، التي كان قد نهبها مع الكرك وسرعين انتقاماً من آل حرفوش، إلى قرية عنجر حيث تجمعت القوات المعادية، وفي بداية الأسبوع الثاني من شهر تشرين الثاني استطاع أن ينزل بهم هزيمة قاسية. وتمكن رجاله من القبض على مصطفى باشا نفسه. ورغم ذلك فقد عامله فخر الدين باحترام وسعى للاستفادة من أسره ليؤكد له بأن حربه إنما كانت ضد آل الحرفوش، وللحصول منه ما أمكن من التنازلات. ونجح أمير الدروز بالحصول على عفو عن كل قادة الانكشارية الذين فروا من دمشق والتحقوا بقواته كما جرت ترقيتهم إلى رتب أعلى، وألقى أهالي دمشق القبض على انكشارية كورد حمزة حيث جرى شنقهم في القلعة، وأعيدت سناجق صفد وعجلون ونابلس إلى فخر الدين وأضيف إليها سنجقا غزة واللجون وناحية البقاع.

سياسة فخر الدين التوسعية

وبذلك بلغ فخر الدين قمة نفوذه، وشعر أنه أصبح الآن حراً في متابعة سياسة التوسع دون توقع أي خطر من صدام آخر مع السلطات العثمانية في دمشق، ولعب دوراً بارزاً في الصراع الذي نشب على منصب ولاية دمشق، بين حليفه مصطفى باشا ومحمد باشا المرسل من قبل الاستانة لتولي هذا المنصب، وتطلع كلا الواليين لمساعدة فخر الدين، فمنح في البداية تأييده لمصطفى باشا، لكنه ما لبث أن بدل موقفه ومكن محمد باشا من مباشرة مهام منصبه، حين تأكد لديه أن تعيين الأخير لن يلغى، وكذلك تلقيه رسائل من الباب العالي بتقديم المساعدة لمحمد باشا بكل ما يحتاجه. لكن وفاة الأخير في نيسان ١٦٢٤ أي بعد فترة وجيزة من مباشرته مهام منصبه، جعل الباب العالي يبدل رأيه السابق ويعيد مصطفى باشا إلى منصبه السابق، لذا لم يكن مفاجأة أن يتخذ الباشا العائد موقفاً عدائياً من أمير الدروز.

وفيما كان فخر الدين يتابع توسعه على حساب باقي الزعامات المحلية، كانت السلطات العثمانية منهمكة في مشاكل داخلية إلى جانب حربها مع الفرس. فالسلطان مراد الرابع (١٦٢٣ ــ ١٦٤٠)، كان عاجزاً عن وضع حد لسلطة فخر الدين الفعلية، والمعترف بها رسمياً، على أجزاء كبيرة من بلاد الشام. ونقل كل الذين أرّخوا هذه الفترة ما جاء لدى حيدر الشهابي في كتابه الغرر الحسان، عند منح فخر الدين، لقب جده المزعوم فخر الدين الأول، سلطان البر، لكن المصادر والوثائق المتوفرة لا تؤكد ذلك. فحالياً قد يكون من دون جدوى أن نحاول بحث نشاط فخر الدين ما بعد ١٦٢٤، فالمصادر المعاصرة والوثائق العثمانية المتوفرة لا تتضمن شيئاً حول هذا الموضوع، ففي ١٦٢٥ توفي أهم مؤرخين البوريني والخالدي، في حين ان من بقي خلافهما مثل القزي لا يذكر شيئاً عن أمر الدروز بعد ١٦٢٤. ومن بين المؤرخين المحليين، فقط الدويهي يكتب في أواخر القرن السابع عشر عن السنوات الأخيرة لفخر الدين، وهو ما أشرنا إليه في موضوع آل سيفا.

نهاية فخر الدين

ومن المؤكد ان الانتصارات العسكرية العثمانية على الفرس، في المرحلة التالية التي أعقبت وفاة الشاه عباس الكبير في اسطفان في ١٦٢٦، كانت عاملاً مساعداً للباب العالي أن يتحول ضد فخر الدين، بحيث تمكن من القضاء عليه في ١٦٣٣. وفي حين لا يتواجد مؤرخون معاصرون لنهاية فخر الدين، فقد ورد لدى المؤرخ العثماني نعيمة بأن أمير الدروز أصبح على درجة من القوة بحيث أن الحكومة العثمانية كانت تخشى أن يحتل دمشق، كما زودنا بتفاصيل اعتقاله في الكهف الذي فرَّ إليه، وحيث جرى نقله إلى الاستانة مع نجليه حسين ومسعود، وفي نيسان ١٦٣٥ قطع رأسه وعرضت جثته في الميدان في حين شنق ابنه مسعود ورميت جثته في البحر، أما حسين فقد تم الصفح عنه نظراً لعدم بلوغه سن الرشد، حيث تولى فيما بعد وظيفة رسمية عالية في القصر السلطاني.

وفي نهاية القرن السابع عشر أو مطلع القرن الثامن عشر، كان لا يزال هناك وجهتا نظر متناقضتان في بلاد الشام عن خصال فخر الدين، وجهة نظر إيجابية تبدو من خلال المؤرخ دويهي، عن تسامحه مع المسيحيين والبعثات التبشيرية الفرنسية. أما وجهة النظر الثانية، فهي مناقضة لذلك تماماً، وهي تعكس وجهة النظر الرسمية، وهي إلى حد ما وجهة نظر المؤسسة الإسلامية في بلاد الشام، محفوظة في سجل محكمة دمشق الشرعية، فقد اعتبروا أمير الدروز رجلاً :مشهوراً لأنه تمرد على مقام السلطنة.

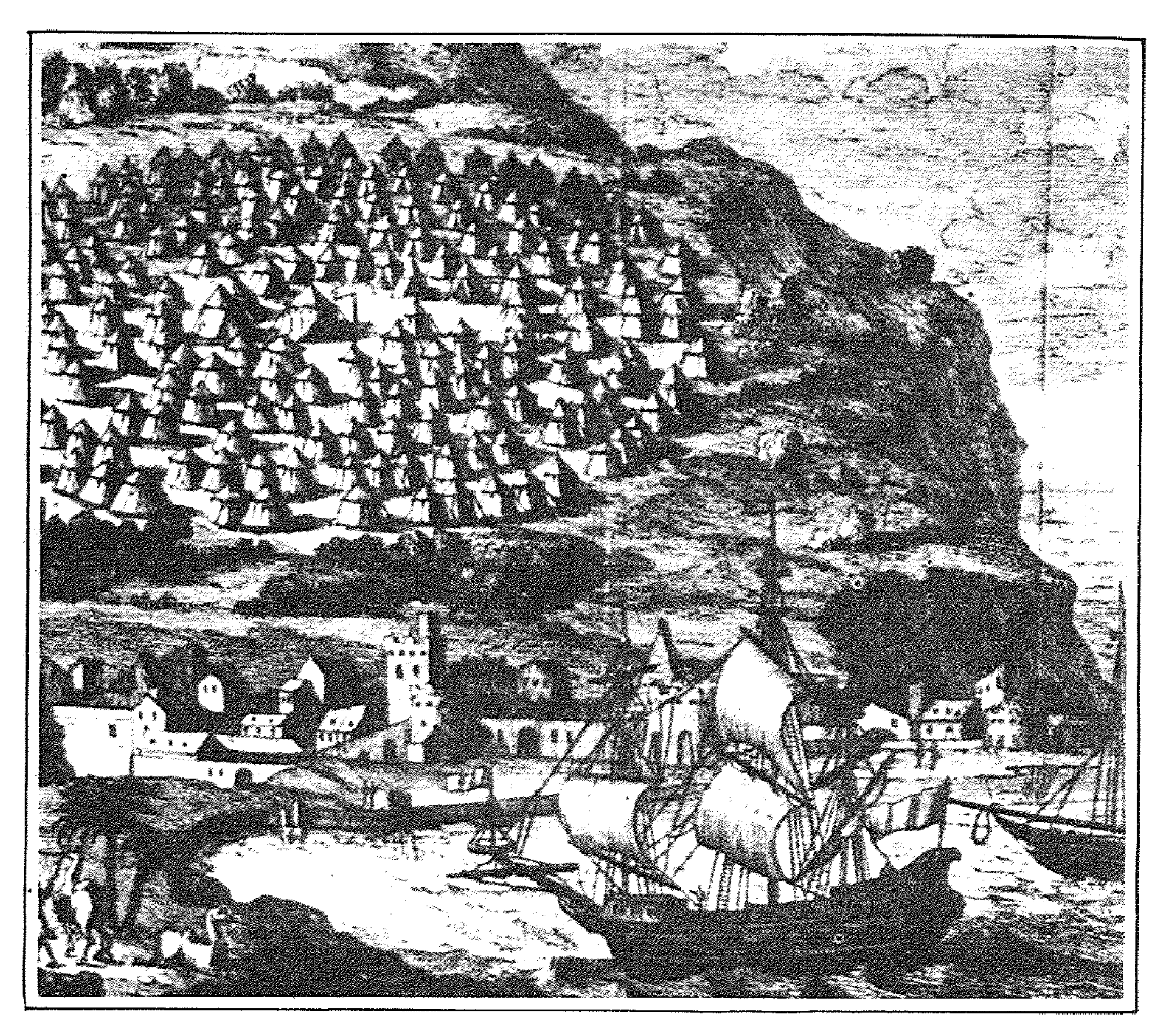
صراع آل الحرفوش وآل العقرا على حكم ناحية بعلبك

ويخصص الدكتور أبو حسين الفصل الثالث من دراسته عن آل الحرفوش الشيعة القرويين زعماء منطقة بعلبك والبقاع، ويشير بأن أصل آل الحرفوش ليس واضحاً، فكلمة حرفوش لفظ شعبي، مرة ترمز إلى ممارسة الصوفية، ومرة أخرى تعني الصوفي الفقير، ويميل إلى الاعتقاد أن يكون آل الحرفوش قد بدأوا تواجدهم في منطقة بعلبك بصفة زعماء شيعة المنطقة الذين هم على المذهب الصوفي. أما عن تاريخ استقرارهم في منطقة بعلبك، فذلك يعود إلى الفترة المملوكية، وبعد الفتح العثماني لبلاد الشام احتفظ آل الحرفوش بسيادتهم الشرعية على منطقة بعلبك، التي كانت بمثابة ناحية من سنجق دمشق في ولاية دمشق، وشاركوا مباشرة في النزاعات المحلية والمؤامرات السياسية التي كانت تشهدها بلاد الشام. وأثناء الحملة العثمانية على جبل الدروز في ١٥٨٥، كان علي موسى الحرفوش ضمن الزعماء الشاميين الذين اعتقلهم العثمانيون ونقلوهم إلى الاستانة، وتولى المسؤولية في بعلبك شخص يدعى أحمد العقرا ابن قنبر.

وبغياب علي الحرفوش كان من الطبيعي أن ينشب صراع على حكم المنطقة بين الأسرتين، انتهى باحتفاظ أحمد العقرا بحكم ناحية بعلبك حتى عام ٩٧١/١٥٨٨ ـــ ١٥٨٩، وهي السنة التي عاد بها علي الحرفوش فقبض على أحمد العقرا وقتله. لكن علي الحرفوش لم ينعم طويلاً بحكم ناحية بعلبك، فقد استبدل بـ علي بك ابن أحمد العقرا، ففر إلى عين دارا على أمل أن يساعده الدروز في استعادة حكم الناحية، لكنهم لم يفعلوا، فانتقل إلى دمشق حيث قبض عليه واليها، ثم أمر بقتله مع بعض آل عساف، ولم تتفق الآراء حول سبب قتله، يعتقد البعض بأن الدولة العثمانية صار لديها هواجس جادة عن سلوكه السياسي، حيث بدأت تساورها الشكوك نحو آل الحرفوش، وذلك انها كانت على علم تام بانتمائهم للروافض الشيعة ذوي الصلة المباشرة مع الصفويين الفرس، أعداء السلطنة العثمانية.

ولكي يتجنب مصير والده تظاهر موسى علي الحرفوش بالسنية لكسب ولاء السلطنة العثمانية، فاستطاع بذلك أن يحوز حكم الناحية من علي بك العقرا، دون أن تشير المصادر متى وفي أي سنة نجح في ذلك، ولكنها تذكر عن حصوله على ناحية سنجق حمص بالإضافة إلى ناحية بعلبك في ١٠٠١/١٥٩٢. وفي حين كانت علاقة والده سيئة مع فخر الدين، فقد تحول موسى بمثابة تابع لأمير الدروز طوال الجانب الأكبر من حياته السياسية، وتعاون معه سياسياً وعسكرياً حين كان يطبق سياسة إخضاع معظم الزعماء المحليين في جبل لبنان، وفي البقاع وبعلبك، وكان من الطبيعي أن ينتج عن هذا التحالف، نشوء عداوة بين آل الحرفوش وآل سيفا، وتبادل الغارات على المناطق التابعة لحكم كل منهما.

وكمعظم الزعامات المحلية في بلاد الشام، كان آل الحرفوش يحرصون بصورة دائمة على أن يكونوا على صلة وثيقة بالشخصيات النافذة في دمشق، ومعظمهم من جسم الانكشارية هناك. وينبغي الإشارة بأن هؤلاء الانكشارية كان بإمكانهم خدمة الأمراء المحليين بأكثر من طريقة. إذ كان بإمكانهم أن يقدموا لهم مساعدة عسكرية في مواجهة أخصامهم، كما كان بإمكانهم التدخل لصالحهم حين يواجهون مشاكل مع السلطات العثمانية في دمشق، أو يضغطون ليؤمنوا تعيين الأمراء حكاماً على السناجق



□ رسم لأحد معسكرات الأمير فخر الدين المعني الثاني الكبير.

أو النواحي ونجح موسى الحرفوش في هذا المجال، بحيث تمكن من كسب ولاء انكشارية دمشق وتحويلهم من موقع المعاداة إلى موقع المساندة.

وحتى وفاة موسى الحرفوش فقد سعى للاعتراف به رسمياً كأمير على بعلبك ورأساً لأسرته، ولكن واجهته مشاكل مع أنسبائه معظمها مع ابن عمه يونس الذي كان ينازعه باستمرار على سلطته. وأثناء تمرد علي جانبولاد وهزيمته ليوسف سيفا والقوات العثمانية انضم يونس إلى المتمردين، فحاول موسى التوسط بين الأخيرين وانكشارية دمشق، وإزاء فشل مساعي موسى انسحب من بعلبك إلى دمشق. وحين وافق علي جانبولاد وفخر الدين على رفع الحصار عن دمشق، فرضا على والي دمشق الاعتراف بيونس الحرفوش حاكماً رسمياً على ناحية بعلبك، ولم ينجح موسى في استعادة سلطته حيث ما لبث أن توفي بعد ذلك في ١٧ صفر ١٠١٦/١٣ حزيران ١٦٠٧. وأصبح يونس الحرفوش سيد بعلبك المطلق، وحاول في البداية أن يظهر لفخر الدين بأنه حليفه الرئيسي، ولكنه ما أن شعر بأن وضعه في بعلبك أصبح مأموناً، حتى باشر يتصرف باستقلالية عن أمير الدروز، فبعد أن ساءت علاقة الأخير بالعثمانيين، أعلن يونس عداءه له ووقف إلى جانب العثمانيين. وما ذلك إلا كمحاولة من يونس لإزالة شكوك العثمانيين بأنه كان متعاطفاً مع الفرس، فعندما زحف أحمد باشا الحافظ في عام ١٦١٣ لقتال أمير الدروز، فقد أسرع يونس لإظهار ولائه للباشا وشارك

بفعالية في العمليات العثمانية والمصادمات الجانبية التي جرت في تلك السنة والسنة التي تلتها، على أمل أن يحل مكان فخر الدين بصفة أعلى أمير محلي في جوار لبنان. ولكن السلطات العثمانية لم تكن راغبة في أن يصبح أي أمير محلي في المنطقة فخر الدين آخر، ولذلك بذل العثمانيون ما بوسعهم لتحريض وإثارة الخلافات فيما بين الزعامات المحلية، وبالنسبة ليونس الحرفوش، فيبدو أنه كان لديهم مخاوف أخرى، نظراً للتعاطف الديني بين شيعة الشام والصفويين الفرس.

وتأرجحت علاقة يونس الحرفوش بالعثمانيين بين المد والجزر، ففي حالة رضى هؤلاء عليه كانوا يعملون على مد سلطته على البقاع بالإضافة إلى ناحية بعلبك، وفي حالات الغضب كانوا ينتزعونها منه ويحيلون حكمها إلى آخر، وتجنباً للحالة الأخيرة كان يونس يحاول أن يبرهن ولاءه للعثمانيين عن طريق التعاون معهم ضد المصالح المعنية في بلاد الشام، وكمكافأة له على الدور الذي لعبه في تهديم قلعتي بانياس والشقيف المعنيتين، أحيل إليه في عام ١٦١٦ سنجق حمص. وطوال فترة غياب فخر الدين في توسكانة ظل يونس الحرفوش يتطلع للحلول مكان أمير الدروز وبما أن معظم أهالي سنجق صفد كانوا من الشيعة، وبصفته زعيماً شيعياً فقد كان بإمكان يونس الحرفوش الاعتماد على مساندة أهالي هذا السنجق، ولذا بذل كل ما في إمكانه لإحالة حكم صفد إليه أو إلى أحد أنصاره. ولكن المعنيين كانوا له بالمرصاد فأحبطوا هذه التطلعات التوسعية، ورغم ذلك استمرت الاتصالات بين آل الحرفوش وشيعة منطقة صفد، في حين بقيت علاقة المعنيين بآل الحرفوش متوترة.

وبعودة فخر الدين من توسكانة في عام ١٦١٨، وجد آل الحرفوش بأنهم عاجزون عن مضاهاته في السلطة، ففضلوا اتباع أسلوب تطبيع العلاقات معه باتباع سياسة الاستمالة وبادلهم أمير الدروز الود بالود، في حين هدم منازل أعيان الشيعة في عدد كبير من القرى الخاضعة للحكم المعني، دون أن يجرؤ يونس الحرفوش على تقديم أية مساعدة لهم، لأن جهوده كانت منصبة على استرضاء آل معن، والتوسع على حساب آل سيفا في الهرمل، وتجديد تعيينه حاكماً على سنجق حمص.

وفي الوقت نفسه الذي كان فيه يونس الحرفوش يسعى لإقامة علاقات مودة مع الأمير فخر الدين، حاول تقوية نفسه في مواجهة الأخير، عن طريق إقامة تحالف مع حزب الانكشارية القوي في دمشق الذي يتزعمه كورد حمزة. واغتنم يونس الحرفوش عزل أمير الدروز عن سناجق صفد وعجلون ونابلس، فحرض كورد حمزة على توجيه ضربة للأخير، كما منع ملاكي الشوف من الوصول إلى أراضيهم في البقاع، رغم أن فخر الدين هو الذي أقام يونس الحرفوش في البقاع أثناء تمرد علي جانبولاد لكن أمير الدروز تمكن من إجبار يونس الحرفوش على إخلاء البقاع والفرار مع جماعته إلى الزبداني.

وتسبب انتقام فخر الدين من آل الحرفوش في البقاع، إلى نشوب نزاع بين حزبي الانكشارية المتنافسين في دمشق، أحدهما كان يتزعمه كورد حمزة والآخر يتزعمه الحاج كيوان، واضطر الأخير إلى مغادرة دمشق مع فريقه والانضمام إلى فخر الدين، وصار كورد حمزة صاحب السلطة المطلقة في دمشق ونجح الأخير بإقناع والي الشام بإحالة سنجق صفد إلى حسين يونس الحرفوش كبديل عن علي معن، ورفض العرض المالي المغري الذي تقدم به أمير الدروز لاستعادة السنجق المذكور. مما أدى إلى توتر العلاقة بين فخر الدين ويونس الحرفوش وكورد حمزة ووالي دمشق مصطفى باشا، ورفض الأخير تنفيذ أوامر الاستانة القاضية بإعادة تقرير أحكام سناجق صفد ونابلس وعجلون إلى فخر الدين، وفي محرم ١٠٣٣/تشرين الثاني ١٦٢٣ حصل صدام بين الفريقين في عنجر انتهى بهزيمة أخصام آل معن، وتمكن أمير الدروز من أسر والي دمشق مصطفى باشا. أما يونس الحرفوش فقد فرّ إلى حلب، فقبض عليه حليف فخر الدين مدلج الحياري وألقاه في سجن السلمية، وتلى ذلك احتلال أمير الدروز لبعلبك وقلعتها.

وفي عام ١٦٢٥ اقصي آل حرفوش عن حكم ناحية بعلبك واحيلت أحكام الناحية رسمياً إلى فخر الدين، ففر يونس إلى حلب حيث جرى

اعتقاله للمرة الثانية، واطيح برأسه في السنة التي تلتها. وكان ذلك بمثابة مبشر بنهاية حكم هذه الأسرة لمنطقة بعلبك، رغم انها ظلت باقية وحاولت استعادة مكانتها السياسية.

فقد نجح علي يونس الحرفوش في الوصول إلى رتبة بلوكباشي في انكشارية دمشق، كما ظل آل الحرفوش، بمثابة أعيان سرعين، وحاولوا في عام ١٦٣٦ استعادة حكم منطقة بعلبك بالقوة، لكن متسلم دمشق تمكن من إفشال مخططهم واعتقل مئتين منهم. ومنذ ذلك الحين لم تعد تشير إليهم المصادر المعاصرة بشيء، إلى أن عادوا وبرزوا في مطلع القرن الثامن عشر كزعماء أسرة شيعية محلية في منطقة بعلبك.

آل فريخ البدو زعماء البقاع

يعتبر منصور فريخ هو المؤسس لأسرة فريخ القصيرة العمر، وهو من الزعامات البقاعية، وتصفه المصادر المحلية بأنه من البدو المحليين. ومعلوماتنا قليلة جداً عن منصور فريخ قبل أن يصبح حاكماً في النصف الأول من القرن السادس عشر. حيث دخل في صراع مع قرقماز معن أمير الدروز، بسبب المصالح المعنية القديمة في البقاع، وتعصبه للسنة وعداوته للشيعة الروافض والدروز. ومنصور هو الذي أغرى إبراهيم باشا لغزو جبل الدروز عام ١٥٨٥، فقد وجد بها فرصة لإضعاف خصمه قرقماز معن. ورغم مشاركة منصور الفعلية في الحملة إلى جانب إبراهيم باشا، فقد كان من جملة الزعامات الشامية التي تم اعتقالها في ٩٩٤/١٥٨٥ ــ ١٥٨٦، من قبل بيلر بك دمشق، فتولى ابنه قرقماز مسؤولية حكم البقاع، وساند الأخير أحمد القرا حين حاول يونس الحرفوش بمساعدة الدروز استعادة حكم بعلبك، فاستطاعا هزيمة الدروز في الاقتتال الذي نشب في رجب ٩٩٤/أيار ــ حزيران ١٥٨٦.

وبدلاً من معاقبة منصور فريخ فقد أعيد من استامبول، وكوفىء بتقرير أحكام ناحية البقاع وسناجق نابلس وصفد وعجلون، كما كلف بإمارة الحج الشامي مقابل دفع مبالغ مالية باهظة، ويبدو أن شهرته كمتعصب شديد للسنة ومناوأته لكل الحركات المنشقة عن الإسلام وخاصة الشيعة والدروز هي التي أهلته لتولي أحكام سنجق صفد الذي غالبية سكانه من الشيعة والدروز.

وبتكليف منصور فريخ بالمنصبين المذكورين أعلاه واجهته مصاعب تمثلت في نشوب نزاع بينه وبين آل قانصوه الذين سبق وشغلوا هذين المنصبين، أدت إلى نشوب قتال هزم فيه منصور فريخ أما المأزق الثاني فكان عجزه عن تأمين المبالغ الباهظة التي تعهد بدفعها للاستانة مقابل تكليفه لمهام المنصبين المذكورين، لأنه كان قد انفق عائدات السناجق المقرر إحكامها إليه في إقامة مقر فخم في قب الياس ، وآخر في ضواحي دمشق.

ورغم صدور أوامر من الاستانة بالقبض على منصور وابنه قرقماز فقد بقيا أحراراً حتى ١٠٠١/١٥٩٣ حين عين مراد باشا بيلر بك على دمشق، فاستفاد فخر الدين من مرور الباشا في صيدا لإثارة الشكوك العثمانية على ابن فريخ، وما ذلك إلا انتقاماً من الأخير وتخلصاً منه، فقد كان لمنصور فريخ دور بارز في حملة ١٥٨٥ العثمانية التي أودت بحياة قرقماز المعني، كما كان أمير الدروز يتطلع إلى انتزاع سنجق صفد، من منصور فريخ، التي يشكل الدروز جانباً من سكانها، فإذا حكمها الأمير المعني يصبح سيداً على المجتمع الدرزي، كما ان ابن فريخ كان قد أصبح ثرياً جداً، واشتهر بظلمه وتمرده نتيجة اجتياحه عدداً كبيراً من القرى، وفوق ذلك تخلف عن تسديد الالتزامات المالية المطلوبة للسلطات العثمانية، ونجح مراد باشا في القبض على منصور فريخ، ونفذ فيه حكم الإعدام في ١٣ ربيع أول ٧/١٠٠٢ كانون الأول ١٥٩٣ بناء لأمر الاستانة. في حين تمكن قرقماز منصور فريخ من الهرب، متنقلاً لمدة سنة من مكان لآخر، إلى أن قبض عليه موسى الحرفوش وقتله في سنة ١٠٠٣/١٥٩٤ ــ ١٥٩٥ بناء لطلب فخر الدين.

وبزوال منصور انتهى دور آل فريخ السياسي، واستطاع أحد أبناء منصور أن يؤمن لنفسه منصب بلوكباشي في دمشق، وفشلت كل جهود الأسرة لاستعادة أملاكها من فخر الدين،

ولم يبق من الأمجاد التي كانت لآل فريخ في الماضي سوى لقب أمير.

وفي قضية منصور فريخ لدينا مثل عن زعيم بدوي سعت الجهود العثمانية لتوظيفه لكنه خيب الآمال في النهاية، ففي بداية حياته أثبت صعوبة في التحول إلى حاكم إقليمي من حيث مواجهة المستوى المطلوب منه من قبل العثمانيين. فالثقة العثمانية به حولته إلى ظالم ومضطهد أصبح نشاطه مربكاً للدولة، كما انعكس وضع مديريته الفقيرة على تأخره المستمر في تسديد العائدات المطلوبة منه. ويبدو أن إدراك منصور فريخ انه سني واظهاره العداوة الشديدة للدروز والشيعة، هما السبب الذي دفعه إلى إبداء مرونة سياسية وإدارية، ظناً منه أن العثمانيين سوف يصفحون عنه. وأثبت سقوطه أن هناك حدوداً لما يمكن للعثمانيين أن يتسامحوا به بخصوص الإدارة الشامية غير المنتظمة.

آل قانصوه حماة قافلة الحج

أسس هذه الأسرة في عجلون الأمير ناصر الدين محمد بن أبي سيفا المدلل المعروف بابن سعيد الغزاوي، ويبدو أن محمد هذا كان قد عين حاكماً على عجلون خلال القرون الثلاثة الأخيرة من الحكم المملوكي لبلاد الشام. ولقد تعاون ابن سعيد مع المماليك بهدف تأمين قافلة الحج الشامي، نظراً لكثرة أتباعه من البدو، ويبدو أن ابن سعيد فقد سيطرته على البدو مباشرة بعد الفتح العثماني لبلاد الشام، عام ١٥١٧ ألغيت قافلة الحج بسبب الاضطراب السائد فيما بين البدو، وفي عام ١٥٢٠ أعدم ابن وحفيد محمد بن سعيد معاً بسبب مساندتهما تمرد القبائل، أو بسبب فشلهما في إخماده. وأدى هذا الوضع إلى زوال ثقة العثمانيين بابن سعيد، ومع ذلك فقد استمرت عائلته، وبرزت كعصبية سياسية متزعمة منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر، حين نجح المتحدرون من محمد بن سعيد في العمل في خدمة قافلة الحج.

وخلف ابن سعيد على زعامة الأسرة، قانصوه بن مسيعدة بن مسلم بن الغزاوي فبرز ابتداء من ١٥٥١ كزعيم للأسرة وأعطاها اسمه الذي عرفت به خلال العصر العثماني، وبتبوأه هذا المنصب كلف بتأمين قافلة الحج الشامي من هجوم البدو، نظراً لأن السنجق الذي كان قد عين عليه يقطع طريق المرتفعات الشرقية الوعرة من البحر الميت. وخلال الفترة الممتدة من ١٥٦٤ ــ ١٥٦٨ كان قانصوه يشغل منصب سنجق بك عجلون، في حين كان يحتفظ في الظاهر بسنجق كرك ــ شوبك، لكنه اضطر إلى ترك مناصبه هذه نتيجة غضب السلطات العثمانية عليه، ونجح في الفرار قبل أن يتمكنوا من القبض عليه. ونظراً للمصاعب التي واجهت حجاج عام ١٥٧١، عادت السلطات العثمانية واقتنعت بأهلية قانصوه لقيادة قافلة الحج بسلام في المناطق البدوية، فاستجابت لطلباته وأعادت تعيينه كأمير للحج عام ١٥٧٢ وأحكام سنجقي كرك ــ شوبك وعجلون.

ورغم نجاح قانصوه في أداء مهمته الأساسية كأمير للحج، وثقة العثمانيين التامة به، لكن علاقته بهم سرعان ما انقطعت في عام ١٥٨٥، نتيجة شعورهم بأنه قد تجاوز الدور المرسوم له. ففي تلك السنة قرر العثمانيون تقليص نمو سلطات الزعامات الشامية وان يبرهنوا لهم بأن كل سلطة يجب أن يكون مصدرها استامبول. فالحملة التي قادها والي مصر إبراهيم باشا كانت موجهة ضد كل الزعامات الشامية المحلية دون استثناء. فطلب من قانصوه أن يحتذي بغيره ويستسلم لإبراهيم باشا، وحين لم يحضر أمام الباشا اعتقل واقتيد إلى استامبول مع بقية الزعماء المعتقلين، لكنه حين مثل أمام السلطان عفى عنه. ومما ينبغي الإشارة إليه أن كلاً من الزعماء عوقب أو سجن فعلاً في استامبول.

وعاد قانصوه من استامبول ولكن السلطان العثماني انتزع منه حكم سنجقي عجلون وكرك شوبك، وحين تمنع عن تسليم السنجق الأول وجه والي دمشق سنان باشا حملة أجبرته الفرار إلى حلب، حيث بقي في المدينة يبذل كل ما في وسعه لاستعادة سنجق عجلون، إلى أن توفي في ١ محرّم ١٠٠٠/١٩ تشرين الأول ١٥٩١. ومما ينبغي الإشارة إليه بأن آل قانصوه بلغوا قمة سلطتهم ونفوذهم في أيام قانصوه، الذي حظي بلقب «أمير الأمراء» وهو لقب يطلق على البيلر بك والوزير والصدر الأعظم، وهذا اللقب

لم يحظ به أحد غيره من قادة قوافل الحج ممن تولوا هذه المهمة من الزعماء المحليين.

وبوفاة قانصوه نجح نجله أحمد عام ١٥٩١ في الحصول على سنجق عجلون كما كلف بقيادة الحج الشامي، كما نجح نجل آخر لقانصوه في أن يعين على سنجق كرك ـ شوبك. ولقي تعيين أحمد معارضة من قبل منصور فريخ، مما أدى إلى نشوب قتال بين الفريقين، ألحق أضراراً بقافلة الحج الشامي، فانتزع سنجق عجلون ومنصب إمارة الحج من أحمد قانصوه. فانقلب على السلطات العثمانية وشكل مع عرب المفارجة قوة حاولت مهاجمة قافلة الحج الشامي، لكنه ما لبث أن توفي، ويرجح أن تكون وفاته خلال الفترة ١٥٩٣ ــ ١٥٩٥، واشيع بأنه مات مسموماً بخديعة العثمانيين.

وبوفاة أحمد قانصوه تصدر ابنه حمدان زعامة الأسرة، ونجح في بعض الأوقات بأن يعين سنجق بك على عجلون وكرك ــ شوبك، ونميل إلى الاعتقاد بأن ذلك تم بعد ١٦٠١ ومن المؤكد أنه كان يشغل هذا المنصب بعد ١٦٠١. ولم يشارك حمدان في الحملة التي نظمها مراد باشا لقمع تمرد علي جانبولاد، كما لم يقف إلى جانب أي فريق أثناء فتنة الأخير، ولا حتى أثناء حملة يوسف سيفا الذي توجه بصفة سردار لقمع تمرد علي جانبولاد. وفي عام ١٠١٨/ ١٦١٠ أنيط منصب أمير الحج إلى سنجق بك نابلس فروخ باشا بن عبد الله، فكان من الطبيعي للباشا المذكور أن يجعل على مشيخة حوران الشيخ رشيد بن سلمان بن نعيم بدلاً من الشيخ عامر بن جبر الذي كان حليفاً لحمدان، وأن يحاول الباشا أيضاً إدارة سناجق عجلون والكرك ــ شوبك التي تقع على طريق الحج، لكن حمدان لم يبد أية مقاومة فأخلى البلاد وترك لوالي دمشق أحمد باشا الحافظ حرية اختيار من يشاء لالتزام عجلون والكرك ــ شوبك. واستجاب فخر الدين المعني لنداء الاستغاثة الذي وجهه إليه الحليفان رشيد وحمدان فأرسل ابنه علي على رأس قوة حربية وبدا بأنها المرة الأولى التي يهتم بها فخر الدين في شؤون عجلون ذلك أن المصادر لا تشير إلى أي تواجد أو نفوذ معني في تلك المنطقة قبل عام ١٦١٣. وكان بإمكان علي معن هزيمة فروخ باشا وانكشارية دمشق، خاصة وان حمدان والشيخ عامر كانا قد أعيدا إلى مناصبهما السابقة. وأثناء حملة أحمد باشا الحافظ على الشوف في عام ١٦١٣، أرسل علي معن ليكون في مأمن لدى حمدان والشيخ عامر، طلب حمدان من قبيلة العياض أن تمنحه حق اللجوء، في حين سعى الشيخ عامر إلى إعادة علي إلى بلاده سالماً. في حين ظل حمدان بعيداً عن بلاده لمدة ثلاث سنوات، مما أدى إلى تقسيم صفوف أسرته وإضعاف قوتها السياسية، وفي عام ١٦١٦ أعيد تقرير أحكام سنجق عجلون إلى حمدان قانصوه، بمساعدة يونس الحرفوش وحسين اليازجي، ذلك أن هذين الرجلين كانا قد وعدا الصدر الأعظم بتهديم القلاع المعنية في سنجق صفد. فتوجه إلى عجلون وقد تملكه الغضب من تعاون شقيقيه سيف وبشير مع سلفه مصطفى بك، فنجح بقتل شقيقه سيف في حين فرَّ بشير إلى الشيخ رشيد في حوران، الذي كان العدو التقليدي لحمدان قانصوه، فسارا معاً ونجحا بهزيمته حيث ما لبث أن قضى متأثراً من الجروح التي أصيب بها.

التدخل المعني

وبوفاة حمدان شب انقسام داخلي بين أفراد آل قانصوه حول من يجب أن يتصدر الزعامة في الأسرة، ورغم المصاعب التي واجهت أحمد بن حمدان قانصوه فقد استطاع أن يخلف والده لغاية ١٦١٩، حين عزل من منصبه في تلك السنة وحل مكانه على سنجق عجلون شخص يدعى قلاوون، كما عزل حليفه عامر من مشيخة حوران وحل مكانه الشيخ رشيد. فاستنفاثاً بفخر الدين المعني الذي كان قد عاد قبل سنة من منفاه الطوعي في ايطاليا، ونجح الأخير في الحصول من الباب العالي على قرار بإعادتهما، وكان ذلك في شوال ١٠٢٨/أيلول ــ تشرين الأول ١٦١٩. ولكن لم تمض ثمانية عشر شهراً حتى عزل أحمد وعمرو وحل مكانهما بشير قانصوه على عجلون والشيخ رشيد على مشيخة حوران، وتم التغيير بإيعاز من أمير الحج فروخ باشا، بسبب حاجته

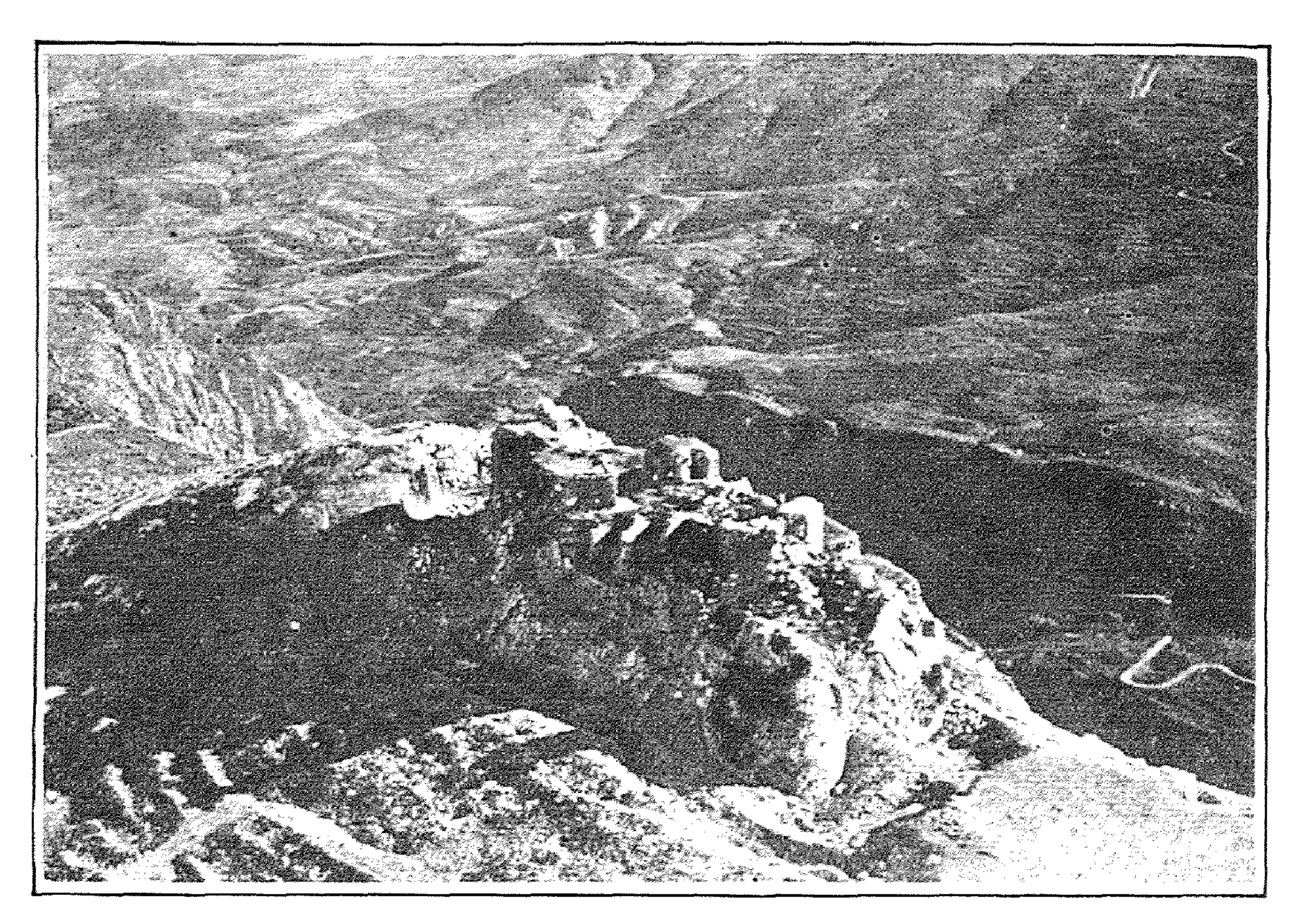
إليهما في بناء قلعة على طريق الحج. ولم يحاول الأمير فخر الدين الاستجابة لرجاء حمدان قانصوه بمساعدته على ضبط سنجقه، لأن الأمير المعني كان يرغب في إحالة تلك البلاد إلى ابنه الأمير حسين، وبتأخر وصول الجواب بتقرير عجلون على الأخير، استعاد حمدان في تشرين الثاني ١٦٢٢ حكم عجلون من عمه بشير بمساعدة الأمير فخر الدين. وبذلك أصبح الأخير القوة الوحيدة في عجلون، وتمكن في ذي الحجة ١٠٣١/تشرين الأول ـ تشرين الثاني ١٦٢٢ من تحقيق أمنيته بتقرير أحكام سنجق عجلون لابنه حسين، وإزاء رفض حمدان قانصوه الاستمرار في حكم السنجق المذكور لصالح الأمير حسين، عين فخر الدين أحد العاملين في خدمته في هذا المنصب. ولم يستسلم بشير قانصوه فخاض نزاعاً مسلحاً مع الحامية العسكرية التي أقامها فخر الدين في عجلون، ونجح أكثر من مرة في انتزاع السنجق من السيادة المعنية، وبعد تدخل أعيان عجلون وحوران تم الاتفاق بين الأمير بشير قانصوه والأمير فخر الدين المعني أن يحكم الأول سنجق عجلون بمثابة قائمقام الأمير حسين المعني، وكان ذلك في الأشهر الأخيرة من عام ١٦٢٤.

ومنذ ذلك الحين فإن آل قانصوه، كغيرهم من الأسر الشامية الحاكمة التي أخضعها فخر الدين، تضاءلت مكانتهم السياسية، كما ان سقوط فخر الدين في عام ١٦٣٣، كان يعني سقوط هؤلاء الأتباع أيضاً. فقد صار لدى بيلر بك دمشق بعد ١٦٣٣ حرية أكبر في التعامل مع الأسر الشامية الحاكمة مثل آل قانصوه، الذين لم يعهد إليهم منذ ذلك الحين تقرير أحكام سنجق عجلون أو قيادة قافلة الحج الشامي، فهذه المناصب صارت تحال خلال الجانب الأكبر من القرن السابع عشر إلى قادة الانكشارية. ومما ينبغي الإشارة إليه، بأن آل قانصوه قدموا في تاريخ الريف الشامي خلال القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر، المثل الأبرز كزعماء عائلة محلية، يرجح بأنها من أصل قروي لا بدوي، كانوا قادرين على التأثير على سلطة البدو واستخدامها لتعزيز مواقعهم السياسية كزعماء أسرة سنية حاكمة كان آل قانصوه قادرين على ضبط البدو في شرق الأردن على طول طريق الحج الاستراتيجي بين دمشق والحجاز، مما مكنهم على كسب رصيد سياسي لدى العثمانيين طالما انهم كانوا قادرين كعائلة على الحفاظ على حد أدنى من التماسك. وبذلك كان من الممكن بالنسبة إليهم، أن يحتفظوا بسيطرتهم التقليدية على سنجق عجلون، وأن يحوزوا أيضاً بمنصب أمير الحج لفترات طويلة. والواقع أن انهيار الأسرة لم يكن سببه فقدان ثقة العثمانيين بهم، ولكن انقسامات داخلية وصراعاً على السلطة بين زعماء الأسرة. وكانت الضربة القاضية لمكانتها السياسية في جنوب بلاد الشام، على يد فخر الدين المعني بعد وصوله إلى قمة السلطة، كأعلى زعيم في الريف الشامي بعد ١٦٢٤.

آل طربيه
زعماء بدو شمال فلسطين

يعود تاريخ آل طربيه كزعماء سياسيين لبني حارثة البدو، في شمال فلسطين، إلى ما قبل الفتح العثماني لبلاد الشام، ففي عام ٨٨٥/ ١٤٨٠ عينت السلطات المملوكية، ابن طربيه كمسؤول عن منطقة مروج ابن عامر كوريث لوالده المتوفي، ويبدو أن ابن طربيه نفسه، اتصل بالسلطان العثماني سليم الأول بعد هزيمة الأخير للمماليك في سوريا ومصر. ومن المؤكد ان الزعيم البدوي ابن طربيه الذي وصفه ابن طولون بـ أمير الدربين، لا بد أن يكون قراجة بن طربيه هو أحد أربعة مشايخ من منطقة جبل نابلس. وقد أعدم قراجة من قبل جان بردي الغزالي، بسبب تعرض البدو لقافلة الحج الشامي عام ١٥١٩، فحمَّل الغزالي زعماء البدو في جبل نابلس مسؤولية التعرض.

وبنهاية قراجة تصدّر زعامة الأسرة ابنه طربيه، وفي أثناء تمرد الغزالي عام ١٥٢٠ وقف إلى جانب العثمانيين. ومنذ ذلك الحين حاز آل طربيه ثقة العثمانيين، وتتجلى هذه الثقة في اتساع نطاق الالتزام الذي عهد به إليهم. وقد اشترك آل طربيه بأكثر من تمرد قبلي على السلطات العثمانية، التي كانت تبادر إلى قمع التمرد، وتنتزع من آل طربيه التزام سنجق



□ قلعة الشقيف.

اللجون، ولكن زعماءهم سرعان ما كانوا يبادرون إلى محاولة كسب عطف العثمانيين بإبداء الولاء والطاعة، بحيث تعود السلطات العثمانية عن قرارها وتعيد إلى آل طربيه التزام سنجق عجلون، كما اتيح لبعضهم بإدارة سنجق غزة، فقد كلف طربيه بن علي الحاريثي عام ١٥٩٤ بهذه المهمة.

وبوفاة طربيه عام ١٦٠١ تصدر الزعامة في الأسرة ابنه أحمد الذي تمتع بعطف العثمانيين، وثبت في منصبه بصفة سنجق بك العجلون حتى وفاته عام ١٦٤٧. ومما ينبغي الإشارة إليه بالنسبة لهذا الزعيم، موقفه أثناء تمرد علي جانبولاد عام ١٦٠٦. فرغم أنه كان يتوجب على أحمد طربيه الانضمام إلى يوسف سيفا، الذي عين سرداراً لقوات ولايتي دمشق وطرابلس، بما في ذلك سنجق اللجون، لقتال علي جانبولاد، لكن أحمد طربيه لم ينضم إلى أي جانب. كما انه حين وصل السردار يوسف سيفا، المهزوم، إلى حيفا، فاراً من دمشق استقبله أحمد طربيه ورحب به في حيفا، متجاهلاً أوامر علي جانبولاد القاضية بقتل يوسف سيفا، ولم يخف حين هدده جانبولاد بإنزال العقاب الشديد إذا لم يطع. وحين قاد الصدر الأعظم مراد باشا لقمع تمرد علي جانبولاد، استدعي عدد كبير من الزعامات الشامية للانضمام إلى جيش الصدر الأعظم ومن بينهم أحمد طربيه، لكنه كغيره من الزعامات الشامية لم يستجب للدعوة، وإنما وجه هدية مع أحد رجاله. ولم يختلف موقف أحمد طربيه عن موقف آل سيفا وحرفوش وشهاب، أثناء الحملة التي قادها أحمد باشا الحافظ على الشوف في عام ١٦١٣. وقد دفعه إلى ذلك ولاؤه للعثمانيين، والضعف الذي أصاب جاره فخر الدين، وإدراكه أن الحرب هذه المرة كانت ملاصقة لحدوده، ولذا فقد شارك في حملتين ضد العثمانيين في ١٦١٣ و ١٦١٤. وحين صدر العفو عن فخر الدين وعاد ثانية من أوروبا، كان موقف أحمد طربيه مشابهاً لموقف بقية الزعامات الشامية، التي أسرعت مصحوبة بالهدايا لتهنئة الأمير بالعودة. لكن علاقة أحمد طربيه بالأمير فخر الدين ما لبثت أن ساءت، بسبب سياسة التوسع التي كان ينفذها

أمير الدروز. فقد امتدت سلطته الأخيرة لتشمل سنجقي عجلون ونابلس، فرفض الشيخ عاصي صهر أحمد طربيه وشيخ بلاد نابلس الانصياع لسلطة عامل فخر الدين في نابلس، كما رحب أحمد طربيه بعدد كبير من مشايخ الشيعة، الذين غادروا سنجق صفد، لدى عودة الأمير فخر الدين من منفاه الطوعي، واتخذوا ملجأ لهم لدى آل طربيه، وأقاموا في برج حيفا وجبل الكرمل. واتخذ فخر الدين من ذلك حجة، فوجه رجاله لاحتلال هذه المناطق عام ١٦٢٢، لكن أحمد طربيه تمكن من هزيمتهم عند نهر العوجا. وبعد انتصار فخر الدين على مصطفى باشا والي دمشق في عنجر عام ١٦٢٣، فشلت جهود أحمد طربيه لمصالحة أمير الدروز، نتيجة اشتراط الأخير على أحمد طربيه أن يحتفظ بإدارة سنجق اللجون لحساب منصور فخر الدين، فجرى اقتتال في شعبان ١٠٣٣/أيار ــ حزيران ١٦٢٤ هزمت فيه القوات المعنية، وأعقب ذلك التوصل إلى اتفاق بين أمير الدروز وأحمد طربيه. واستمر الأخير محافظاً على استقلاله حتى نهاية حياته، فقد كان يعتمد على قاعدة قبلية صلبة، فقد كان بإمكانه أن يجند ما بين ٤٠٠٠ و ٥٠٠٠ مقاتل، لا يتقاضون أية أجور وإنما يقاتلون دفاعاً عن قبيلتهم.

وبوفاة أحمد طربيه في ١٦٤٧ سار خلفاؤه في تأدية الواجبات التي كانت ملقاة على أسلافهم، فبصفتهم حكام سنجق اللجون، توجب عليهم الحفاظ على تأمين الطرق للتجار والبريد السلطاني والتصدي لعمليات التمرد التي قد تحصل في الجوار.

ولقد أثبت آل طربيه في تاريخ الريف الشامي خلال القرنين السادس عشر وأوائل السابع عشر، أنهم نموذج أسرة بدوية تمكن زعماؤها من تثبيت حكمهم على منطقة معينة منحت لهم. وبخلاف آل فريخ، الذين دمروا فرصتهم في الاستمرار في تحقيق إنجازات سياسية، كزعماء بدو في البقاع، باستغلال عطف العثمانيين عليهم من أجل إثراء أنفسهم على حساب المنطقة الإدارية المكلفين بإدارتها، فقد نجح آل طربيه بالاحتفاظ بعطف العثمانيين لزمن طويل، عن طريق الاهتمام بشؤون المنطقة وتأدية الواجبات الملقاة على عاتقهم. وبخلاف بقية زعماء الريف الشامي، استمروا في تقديم الولاء للعثمانيين حتى أثناء الفترات التي تمكن خلالها فخر الدين من تحجيم السلطة العثمانية في بلاد الشام إلى مجرد ظل. ذلك أنه مما لا شك فيه أن تعصبهم للسنة، دفعهم إلى الاستمرار في تقديم الولاء للعثمانيين، إلى حد انهم دافعوا عن ذلك بالقوة العسكرية. وكنتيجة فقد كانوا إحدى الأسر الشامية المحلية التي عاصرت مآزق أوائل القرن السابع عشر، التي أدت إلى سقوط فخر الدين والكثير من بقية الأسر الشامية، واستمروا السادة على سنجق اللجون حتى نهاية القرن نفسه.

تلك هي ملامح عامة لأهم ما جاء في دراسة د. عبد الرحيم أبو حسين عن الزعامات المحلية في بلاد الشام ١٥٧٥ ــ ١٦٥٠، ومما لا شك فيه أن الباحث قد استطاع بهذه الدراسة، أن يسد فراغاً هاماً في المكتبة العربية التاريخية، كما انها تعتبر مساهمة جادة في تصحيح الكثير من الأخطاء التاريخية، التي لا تزال تدرّس إلى أبنائنا في كل المراحل التعليمية. ونأمل ممن يجيد الإنجليزية من أساتذة التاريخ، التمعن في قراءة هذه الدراسة، وتصحيح الأخطاء التاريخية الموجودة في المقررات على ضوئها.

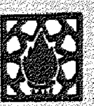


● «إنني لا أحب أن أتحدث كثيراً مع أناس يوافقونني دائماً على ما أقول فقد يكون من الممتع التحدث مع الصدى فترة قصيرة، ولكن الانسان سرعان ما يشعر بالملل».

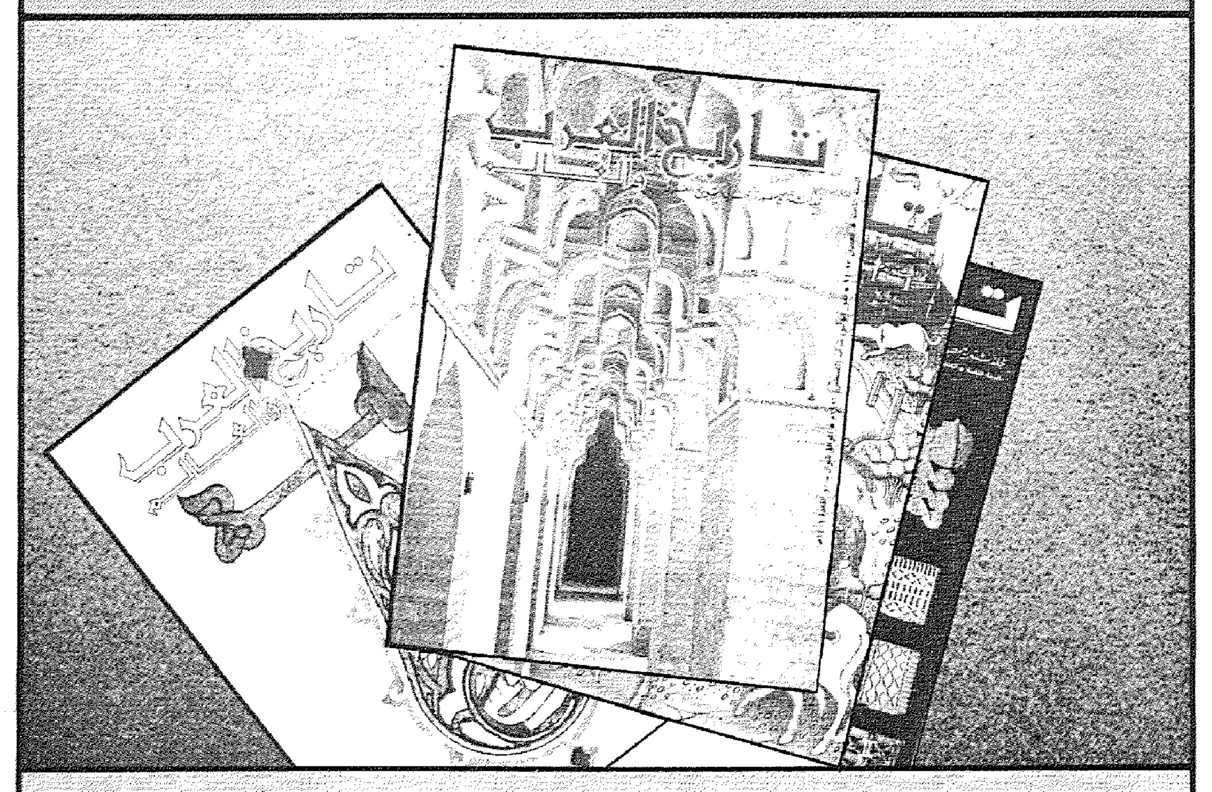
(توماس كارليل)

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي



صدر العدد الأول في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨
تصدر في منتصف كل شهر عن « دار النشر العربية »
صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

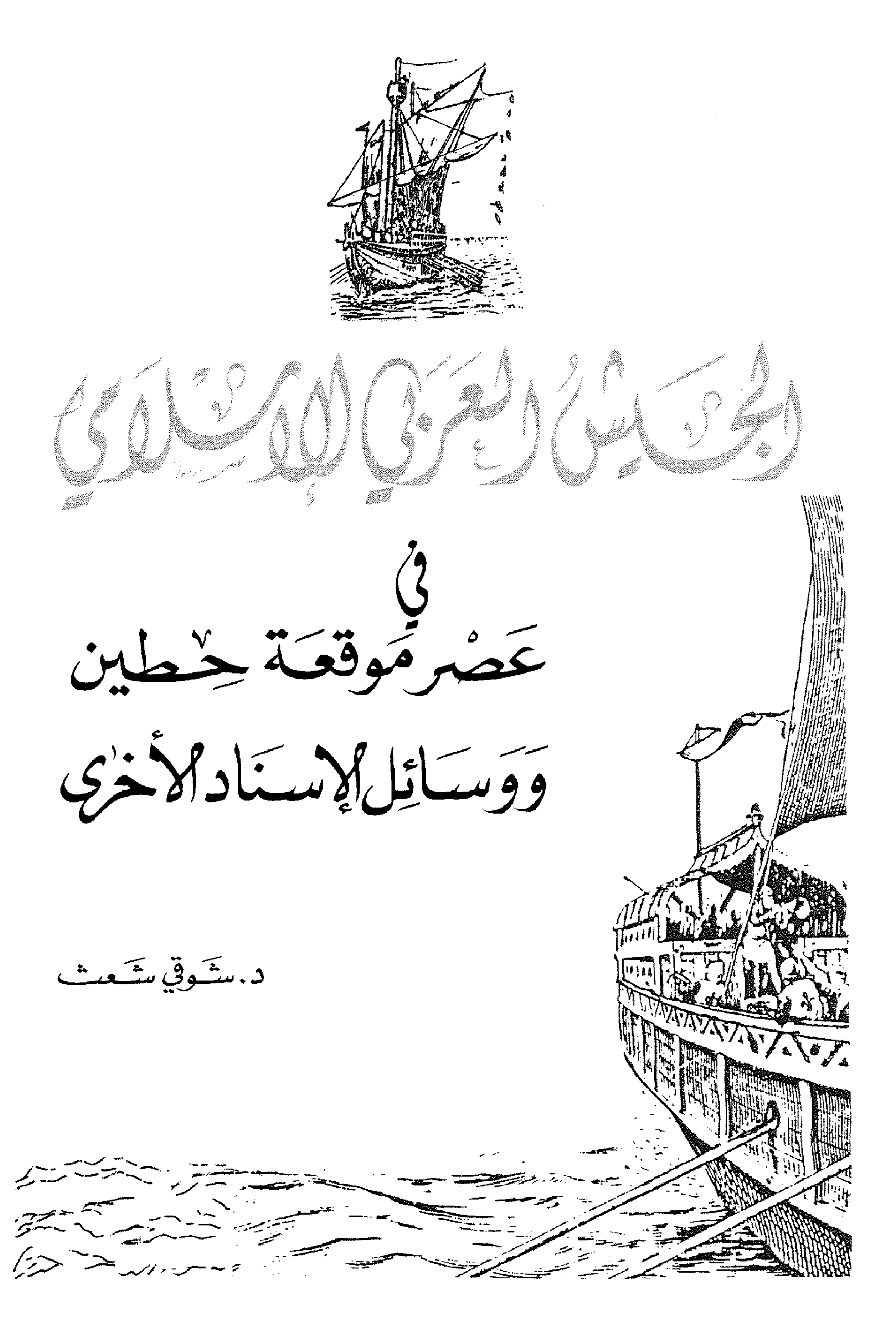


الاشتراكات

● في لبنان .... ١٠ دولار	● للمؤسسات والدوائر الحكومية في الوطن العربي .... ٧٥ دولاراً
● للأفراد في الوطن العربي .... ٣٥ دولاراً	● للمؤسسات والدوائر الحكومية خارج الوطن العربي......... ١٠٠ دولار
● للأفراد في دول العالم الأخرى ...... ٥٠ دولاراً	

جميع المراسلات توجه بإسم رئيس التحرير

بناية ابو هليل - شارع السادات - بيروت - لبنان - ص . ب . / ٥٩٠٥ / هاتف : ٨٠٠٧٨٣



الجيش العربي الإسلامي

في عصر موقعة حطين ووسائل الإسناد الأخرى

د. شوقي شعث

٤٤ ـ تاريخ العرب والعالم

ورث صلاح الدين الأيوبي الخلافة الفاطمية بمصر والدولة النورية في بلاد الشام والجزيرة التي كانت أصلاً تابعة للخلافة العباسية في بغداد وكان صلاح الدين أحد القادة البارزين فيها، فمن الطبيعي إذن أن تستمد الدولة الناشئة، أعني الصلاحية، نظمها العسكرية من المصدرين المشار إليهما آنفاً. إلا أن النظام العباسي ــ النوري كان أكثر شيوعاً في جيش صلاح الدين بحكم أنه، أي صلاح الدين، كان أحد أركانه، وعليه فمن المؤكد أن تنسجم التقاليد العسكرية في جيشه مع التقاليد التي شب عليها وآمن بها. وعليه فإن من أراد البحث في النظام العسكري الصلاحي أي الجيش العربي في عصر موقعة حطين لا غنى له عن مراجعة النظم العسكرية في الجيش الفاطمي والدول: الزنكية والسلجوقية والعباسية.

لم يكن الجيش النوري الذي كان يقوده أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين والذي قدم به إلى مصر والذي آلت قيادته إلى صلاح الدين لم يكن يزيد عدده عن ثمانية آلاف رجل، وعندما أصبح صلاح الدين بعد موت عمه وزيراً للخليفة العاضد الفاطمي، عاد قسم من تلك القوة إلى بلاد الشام نظراً لأنه لم تعد الحاجة إليهم قائمة بعد أن أصبح بإمكانه استعمال جنود الدولة الفاطمية، ولم تبق بشكل فعلي إلا الفرقة الأسدية التي حملت اسم أسد الدين شيركوه، والتي لم يكن يتجاوز عدد أفرادها الخمسمائة رجل ولكن صلاح الدين عمد فيما بعد إلى تكوين فرقة جديدة سماها «الصلاحية» تقدر المصادر عددها بنحو ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل وقد ضمت هذه الفرقة فرساناً منوعة وفرسان القبائل ويبدو أنها أصبحت نواة للجيش النظامي الصلاحي فيما بعد.

أقام صلاح الدين مؤسسة عسكرية حقيقية وسهر على تنميتها باستمرار وقد كلفه ذلك الأمر نفقات مالية باهظة، ومن أجل تأمين تلك النفقات وجه كل شيء نحو الجهاد في سبيل تحرير الأرض فتحول من أجل ذلك اقتصاد الدولة الصلاحية إلى «اقتصاد حربي» وقد ظهر ذلك جلياً في الفن والثقافة والعمارة.

العناصر المكونة للجيش الصلاحي

كان الجيش العربي الإسلامي قبل عهد صلاح الدين يتألف من عدة عناصر من المسلمين من أهمها: العرب، الأكراد، الأتراك، والتركمان وغيرها من العناصر التي تسكن في إطار الدولة العباسية، وغالباً ما كانت هذه العناصر، التي تسكن في إطار الدولة العباسية تكون الفرق العسكرية في الجيش الإسلامي، وحيث أنه لم يكن آنذاك نظام الخدمة العسكرية المتعارف عليه لدى الدول الحديثة، فإنه كان يتوجب على الولاية أن تقدم الفرق العسكرية المؤلفة للجيش، وفي بادىء الأمر كان أمير الولاية هو قائد الجند الذين يجمعهم من ولايته، إلا أن ذلك لم يكن عملياً وقد أثبتت التجربة وَهَن ذلك الجيش، فكان في واقع الأمر عبارة عن تحالف من عدة أمراء لا سلطان للسلطان عليهم، وكانوا كثيراً ما يقتتلون لاقتسام الغنائم، إلا أن هذه الحال تغيرت بعد عام ١١٢٨، بوصول الأتابك عماد الدين زنكي إلى مسرح الأحداث والذي حاول أن يسيطر على مقدرات الجيش ويجعل قيادته مركزية، إلا أن هذه السلطة المركزية أخذت بالتراجع بعد موت نور الدين بن عماد الدين، وفي عهد صلاح الدين عاد الأمر إلى الانتعاش ولكن بأسلوب آخر فنما الجيش وكثر عدده، فكان هناك جيش مصري وآخر سوري ومن أهم فرقه فرقة حلب. ففي خلال عامي ١١٨٢و ١١٨٣ أصبح جيش صلاح الدين الأيوبي جيشاً قادراً متفوقاً نسبياً، وهذا ما جعله يحقق الانتصار تلو الانتصار وأهم تلك الانتصارات، انتصار حطين العظيم، ووقف بعد ذلك كالطود الشامخ في وجه الصليبيين.

كانت العناصر المكونة للجيش على نوعين: منها العناصر الدائمة وهي العناصر التي تأخذ راتباً من الدولة وتقع على عاتقها المهمات القتالية

بشكل أساسي، أما النوع الثاني فكان من المتطوعين وهؤلاء كانوا يلتحقون بالجيش وقت الحرب وكانت عائلاتهم تمنح مخصصات إما عيناً أو نقداً، وكان يطلق على هذا النوع من المتطوعة اسم «الأحداث» لحداثة دخولهم في الجيش وكان لهم رئيس يطلق عليه اسم «مقدم الأحداث» أو «رئيس الأحداث»، وكان لهؤلاء أي الأحداث نفوذ كبير في المدن العربية الكبرى كدمشق وحلب وحمص، وقد أُطلق عليهم فيما بعد اسم «المتطوعة» في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، في العهد الصلاحي، وعلى كل حال هم فرق غير نظامية باستطاعة أفرادها العودة إلى أوطانهم متى شاؤوا، ومعظمهم من الفقهاء والصوفية وأصحاب العمائم وأبنائهم، ويقدر ابن الجوزي عدد الذين حضروا فتح بيت المقدس من المتطوعة مع صلاح الدين في الثاني من تشرين الأول ١١٨٧ بزهاء عشرة آلاف من جميع الأجناس، كما لفتت كثرة عددهم ستانلي لين بول يوم حطين في كتابه الذي كتبه عن صلاح الدين.

تشكيلات الجيش في عهد صلاح الدين

تشكّل الجيش العربي في عهد صلاح الدين من طوائف حملت كل طائفة منها اسم السلطان أو القائد الذي أسسها أو قادها مثل: الطائفة النورية نسبة إلى نور الدين، أو الطائفة الأسدية نسبة إلى أسد الدين شيركوه، أو الطائفة الصلاحية نسبة إلى صلاح الدين الأيوبي، وكان يسمى قادة تلك الطوائف «مقدمو المماليك السلطانية»، وكانت هذه الطوائف تتألف غالباً من عنصرين هامين هما: **الأمراء والأجناد**.

١ ــ يتألف الأمراء من أربع درجات:

أمراء الطبقة الأولى: وهم ، أمراء المئات، مقدمو الألوف وعدة كل واحد منهم مئة فارس وعددهم عشرون مقدماً، ورتبة «أمير مائة» رتبة حربية خاصة بأرباب السيوف.

أمراء الطبقة الثانية: وهم أمراء الأربعين ويسمون احياناً أمراء الطبلخانة لأحقيتهم في دق الطبول على أبوابهم، عدة كل منهم أربعون فارساً وينقص عددهم ويزيد تبعاً للظروف أو الحاجة.

أمراء الطبقة الثالثة: وهم أمراء العشرات وعدة كل منهم عشرة فرسان وعددهم غير محدد ويؤخذون من صغار الولاة.

أمراء الطبقة الرابعة: وهم أمراء الخمسات وأكثرهم من أولاد الأمراء المتوفين ويعتبرون من أكابر الجند وعددهم غير محدود.

٢ ــ الأجناد ويتألفون من:

المماليك السلطانية: وهم أعظم الأجناد شأناً ومنزلة عند السلطان وأوفرهم إقطاعاً يعين عددهم تبعاً للحاجة، أغلب هؤلاء من الترك والكرد والشركس.

أجناد الحلقة: وهم أخلاط كان لكل أربعين عنصراً منهم مقدم منهم لا يحكم عليهم إلّا إذا خرجوا للقتال.

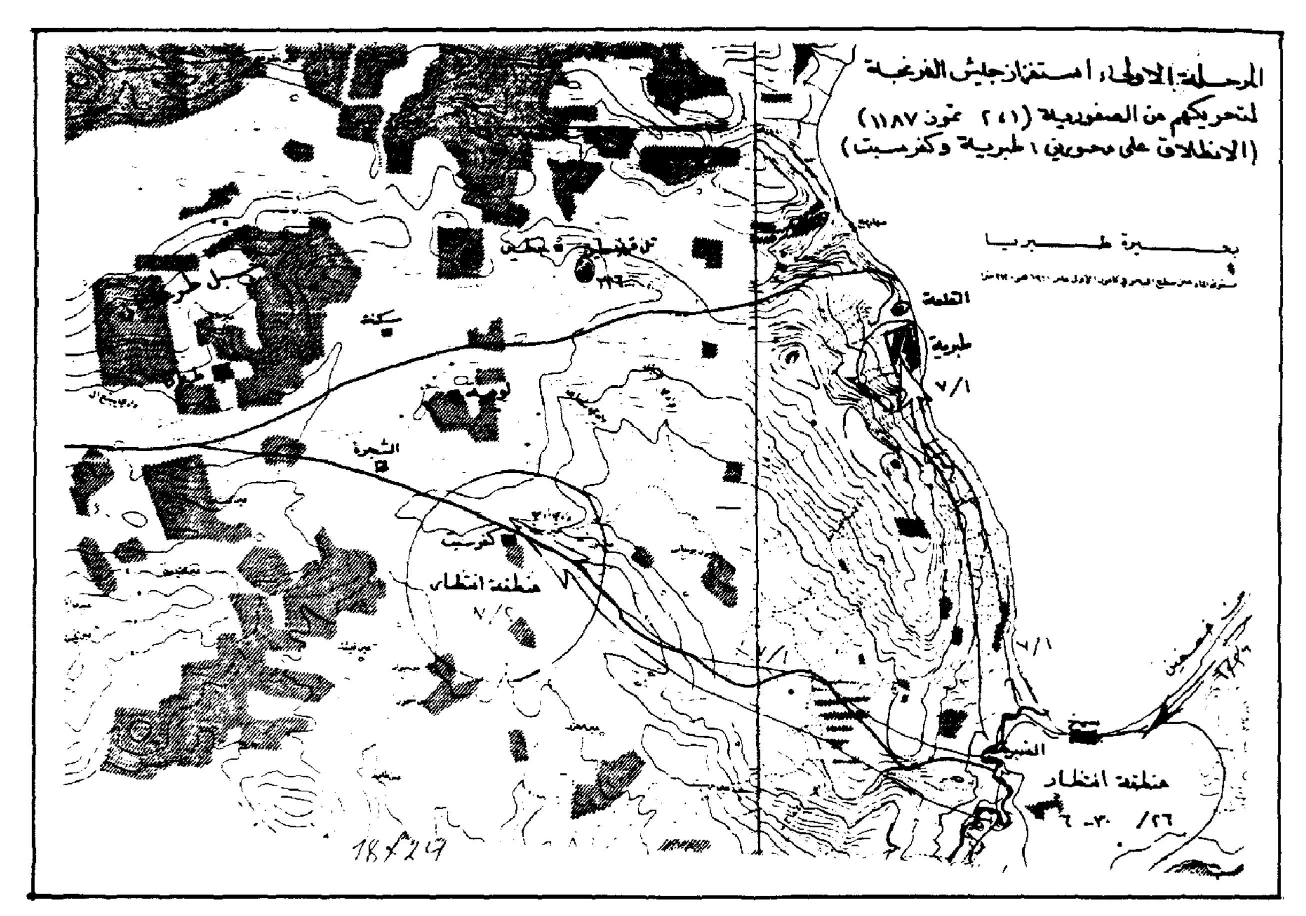
وإلى جانب العسكر والجند والمتطوعة هناك فرقة النشابين الذين يرمون النشاب، والنفاطين الذين يرمون النفط لإحراق حصون الأعداء، والمنجنيقيين رماة المنجنيق، والعيارين وهم رماة الحجارة وكانوا يملؤون مخالي الخيل بها، وهناك أتباع العسكر أو الأوباش والرعاع ويسمون سوقة أو حواش.

أسلحة الجيش

كانت أسلحة جيش صلاح الدين لا تختلف كثيراً عن أسلحة الجيوش الإسلامية المعاصرة أو جيوش الصليبيين المعاصرة فكانت تتألف من الرماح والسيوف والتروس والسهام والفؤوس، وكان الجند يلبسون الخوذ والدروع إضافة إلى ذلك كان الجند الذين يستعملون النفط يلبسون لباساً خاصاً والمنجنيقات والمقاليع وغيرها من أسلحة العصر، ومن الأسلحة الهامة أيضاً كانت الدبابات التي تقوم بثقب الأسوار والأبراج.

وعلى وجه العموم يمكن القول أن عهد صلاح الدين شهد تطوراً كبيراً في جميع الميادين خاصة ميدان العلوم العسكرية ومنها فنون القتال فقد جرى تحسين وتطوير الأسلحة خاصة الأسلحة النارية وتم رفع مستوى التدريب والمقدرة القتالية.

وكان الفرسان في الجيش الصلاحي يتسلحون بالدروع والسيوف والرماح في حين كان الرحالة (المشاة) يتسلحون بالدروع والحراب والأقواس



□ خارطة عسكرية لإحدى مراحل معركة حطين.

والسهام.

وكان لباس الجيش الصلاحي يختلف باختلاف الفرق والأسلحة فجنود المماليك السلطانية وجنود الحلقة كانوا يلبسون على رؤوسهم الطواقي الصفراء دون عمامة كما كانوا يلبسون على أبدانهم أقبية بيضاء، ضيقة الأكمام من القطن البعلبكي، وفي بعض الأحيان تكون حمراء أو زرقاء ويشدون على أوساطهم أحزمة من القطن ونظراً لأن الفرقة المعروفة بفرقة الأجانب كانت تأخذ رواتب عالية كان لباسها أجمل وأفخم لباس.

قيادة الجيش الصلاحي

كانت القيادة في الجيش العربي في عهد صلاح الدين له دون منازع فهو القائد الاستراتيجي الناجح وهو القائد الفذ الذي حقق الانتصار تلو الانتصار على الإفرنج فكانت شخصية صلاح الدين ونجاحاته الحربية التي أعطت له الوزن العسكري في أعين القادة الآخرين خاصة أمراء الإقطاعات والجند.

كان يعاون صلاح الدين مجلس يسمى «المجلس الحربي» ويضم في عضويته الملك العادل أبو بكر أخي صلاح الدين وأولاد صلاح الدين وأولاد عمه والرفاق القدامى والأتباع الجدد والقاضي الفاضل والعماد الكاتب وبهاء الدين بن شداد، وكان لهؤلاء الأعضاء حق إبداء الرأي بكل صراحة ولم يحصل أن تجاوز أحد الأعضاء حدوده في حضرة السلطان صلاح الدين.

كان المجلس ينعقد بدعوة من صلاح الدين كلما دعت الضرورة، كأن تحدث أحداث جسام كتلك التي أوجبت اجتماعيه لمناقشة وضع مدينة صور التي كان يحتلها الإفرنج بعد أن استعصت على صلاح الدين وقد قال صلاح الدين فيها «هذا بلد حصين، ثلاثة أرباعه في البحر، ومن أحكام العزم تكميل الآلات وتركيب الأبراج والدبابات واستحضار كل ما يراد للحصار.

وعند حصار الإفرنج لعكا دعى صلاح الدين

المجلس الحربي للاجتماع واستهل الاجتماع (رمضان ٥٨٥ /١٢ تشرين أول ١١٨٩) «بسم الله والحمد لله والصلاة على رسول الله اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا قد نزل في بلدنا وقد وطىء أرض الإسلام وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا، ليست وراءنا نجدة ننتظرها، سوى الملك العادل، وهو واصل، والرأي عندي مناجزة لعدو قبل أن يفتح البحر فليخبرنا كل منكم بما عنده» وقد انقسم أعضاء المجلس الحربي بهذا الخصوص فمنهم من كان يرى رأي السلطان بالاستمرار بالقتال ومنهم من رأى غير ذلك وبعد المناقشة المستفيضة وتقليب الأمر على وجوه عدة أخذ برأي المعارضين، فتأثر السلطان تأثراً بالغاً بذلك وأصابته حمى على حد قول ابن شداد وأثبتت الأيام فيما بعد صحة رأي السلطان، فضاعت عكا في النهاية بعد حصار بعامين كاملين.

في حادثة أخرى نجد المعارضة تتكرر للسلطان صلاح الدين في المجلس الحربي مفادها أن بعض أعضاء المجلس قال بتخريب مدينة عسقلان حيث صعب الدفاع عنها وكان يتطلب حامية كبيرة وجهداً فائقاً ورغم أن السلطان صلاح الدين في اجتماع المجلس الحربي، في ١٠ سبتمبر عام ١١٩١، عارض ذلك وقبحه وطلب من بعض الأمراء التحصن فيها والدفاع عنها، إلّا أنه امتنع خوفاً من تمثيل الإفرنج بأهل المدينة وحاميتها عند سقوطها كما فعلوا في عكا، وقال المعارضون للسلطان «إذا أردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار وإلّا فما يدخلها منا أحد لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا». فرضخ السلطان للمعارضين بتخريب المدينة وخربت حتى لا يستفيد العدو الإفرنجي منها، ولكنه حزن حزناً شديداً وعبر عن ذلك بقوله للقاضي ابن شداد «والله لأن أفقد أولادي بأسرهم أحب إلي من أهدم حجراً واحداً منها».

ومع أن حوادث المعارضة تكررت في المجلس الحربي للسلطان، إلّا أنه كان يسمع لأعضائه ويناقشهم فرادى ومجتمعين، وكان في أغلب الأحيان يحزم الأمر لصالح القرار الملائم.

المعسكر الإسلامي في عهد صلاح الدين

كانت هناك شروط أساسية لإقامة المعسكرات في عهد صلاح الدين، وكانت تلك الشروط أساسية حتى في المعسكرات التي سبقت تلك التي لحقت عهد صلاح الدين ومن أهم تلك الشروط:

١ ــ سهولة الوصول إلى الماء وذلك لحاجة المعسكر للماء لسقاية الجند والبهائم وإلى الاستعمالات اليومية الأخرى.

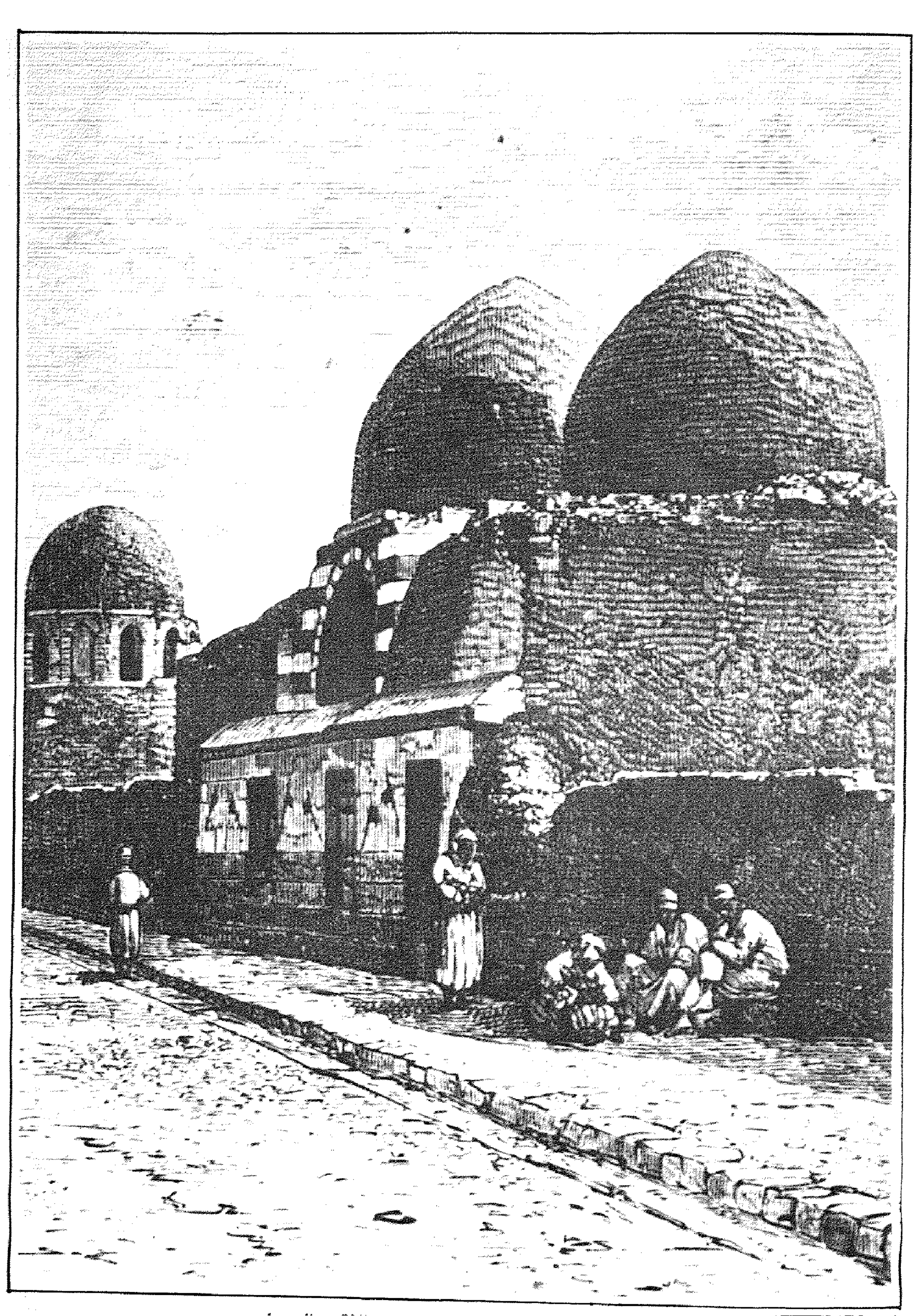
٢ ــ سهولة الحصول على الأزواد والكلأ وذلك لضمان الحصول على طعام للجند وعلف للبهائم التي يعتمد عليها في الجيش في القتال ضد العدو والتجهيزات الأخرى.

٣ ــ سهولة الدفاع عنه إذا ما هوجم كأن يكون في موقع استراتيجي حصين.

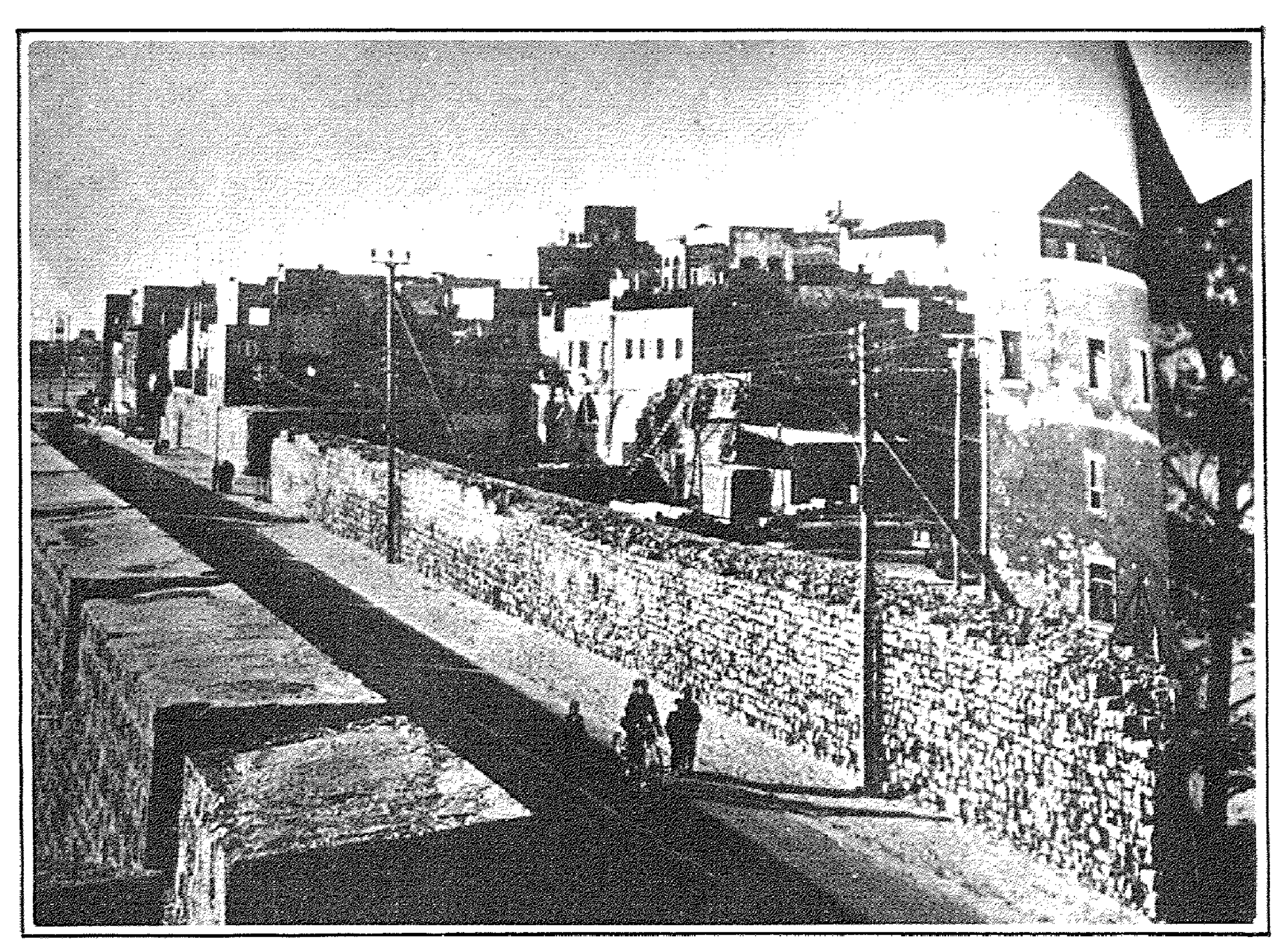
بعد أن تنتقى البقعة التي تتوفر فيها الشروط آنفة الذكر، تقام أول ما يقام خيمة السلطان في وسط المعسكر وتعتبر في مثابة المركز في المعسكر، ثم يتحلق حوله امراء الجيش وأهلهم والخصيان ومطابخهم وشرابهم ورباط خيل أهل النوبة. ومن أجل الترفيه عن الجند كان يضم المعسكر كل وسائل الراحة والحاجات اليومية والأنشطة التجارية والصناعية. يصف الرحالة عبد اللطيف البغدادي معسكر صلاح الدين وصفاً ممتعاً بعد أن زاره عام ٥٨٧هـ /١١٩١م فيقول «كان السوق الذي في عسكر السلطان على عكا عظيماً، ذا مساحة فسيحة فيه مئة وأربعون دكان، وعددت عند طباخ واحد ثمانية وعشرين قدراً كل قدر تسع رأس غنم، وكنت أحفظ عدد الدكاكين لأنها كانت محفوظة عند شحنة السوق وأظنها سبعة آلاف دكان وهي ليست مثل دكاكين المدينة، بل دكان واحد مثل مائة دكان لأن الحوائج في الأعدال الجوالقات.. وأما سوق البز العتيق والجديد فشيء يبهر العقل، وكان في المعسكر أكثر من ألف حمام وكان أكثر ما يتولاه المقاربة.

نظام المعسكر الإسلامي في عهد صلاح الدين

لم يكن يختلف نظام العسكر في عهد صلاح الدين عن سابقه على وجه العموم، فقد



□ حي المدارس وقباب الكتاتيب التي تعلم فيها الدمشقيون القراءة والفقه والحساب.



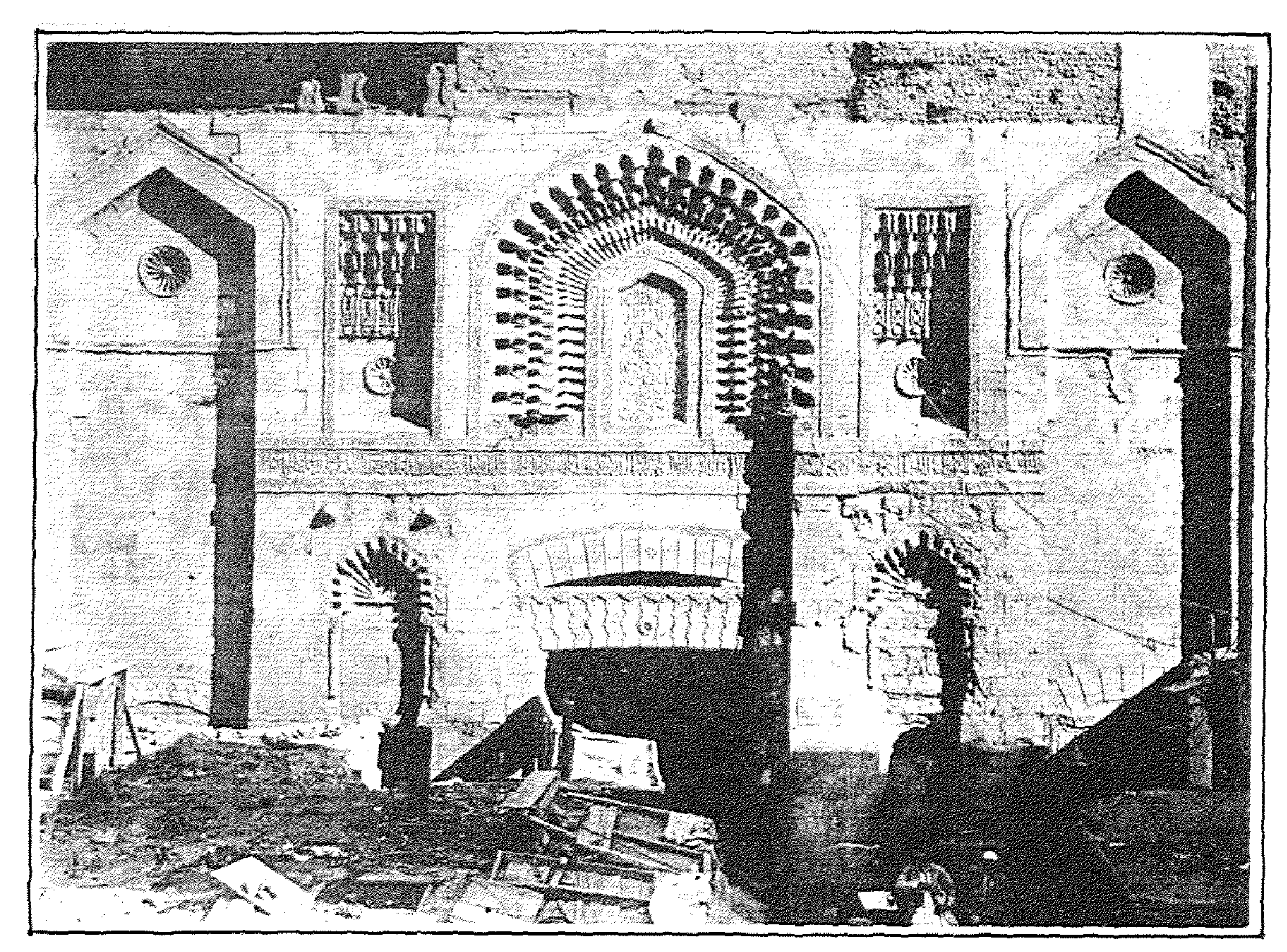
□ مدينة عكا.

سبق أن أشرنا إلى أن صلاح الدين قد ورث التقاليد العسكرية في العهد النوري والفاطمي وسار على نهجها فنجد هناك السلطان وقد توسط العسكر وعسكر المقدمة وعسكر الميمنة وعسكر الميسرة وعسكر الساقة أو عسكر الخلف ويكون السلطان بمثابة القلب لهذه الأجنحة الأربعة وينقسم كل جناح إلى ذراعين فيما عدا عسكر المؤخرة فهو يضم المطابخ والخزينة وأدوات القتال والدواليب والفائض من الخيول والمال والأسرى والجرحى.

كان لكل عسكر قائد يسمى «المقدم» فهناك مقدم الميمنة ومقدم الميسرة ومقدم الساقة وهكذا، أما القلب فكان بقيادة صلاح الدين نفسه يحيط به الأطباء والفلكيون والعلماء ورماة المزاريق والأخصاء وأمامه يقف حاملو الأعلام والموسيقيون.

وفي مجال الحرب اتبع صلاح الدين أسلوب الحرب الكلاسيكية المعاصرة، ولكن ذلك لم يمنعه من اتباع الأساليب الحربية التي تضمن له النصر إذا رأى أن في ذلك فائدة للمسلمين ومن تلك الأساليب. «الحرب الخاطفة» فقد كان يباغت عسكر الإفرنج قبل أن يستجمع قواه بعد معركة ساخنة لا يتوقع العدو أن يقوم بها. ومن أمثلة ذلك بعد انتصاره بوقعة حطين عام ١١٨٧م قام بمهاجمة عكا وصفورية وقيسارية وغزة ونابلس حتى إذا استعصت عليه مدينة صور تركها وعاد إلى مهاجمة بيت المقدس واستولى عليها ولم يعتبر صلاح الدين الحرب الخاطفة قاعدة لا يمكن الخروج عنها فكان إذا رأى أن ذلك غير مجد تحول إلى أسلوب تكتيكي آخر.

ومن الأساليب الأخرى التي اتبعها في الحرب، سلاح الخديعة وسلاح الكمائن وهذا ما حدث في منطقة تبنين، فقد أوهم الإفرنج أنه هُزم ولكن في الحقيقة قادهم إلى كمين حيث قضى عليهم، ومن الكمائن المشهورة الكمين الذي نصبه للملك ريتشارد قلب الأسد عندما خرج للصيد والاحتطاب وقد كبدت هذه الكمائن العدو كثيراً من الخسائر.

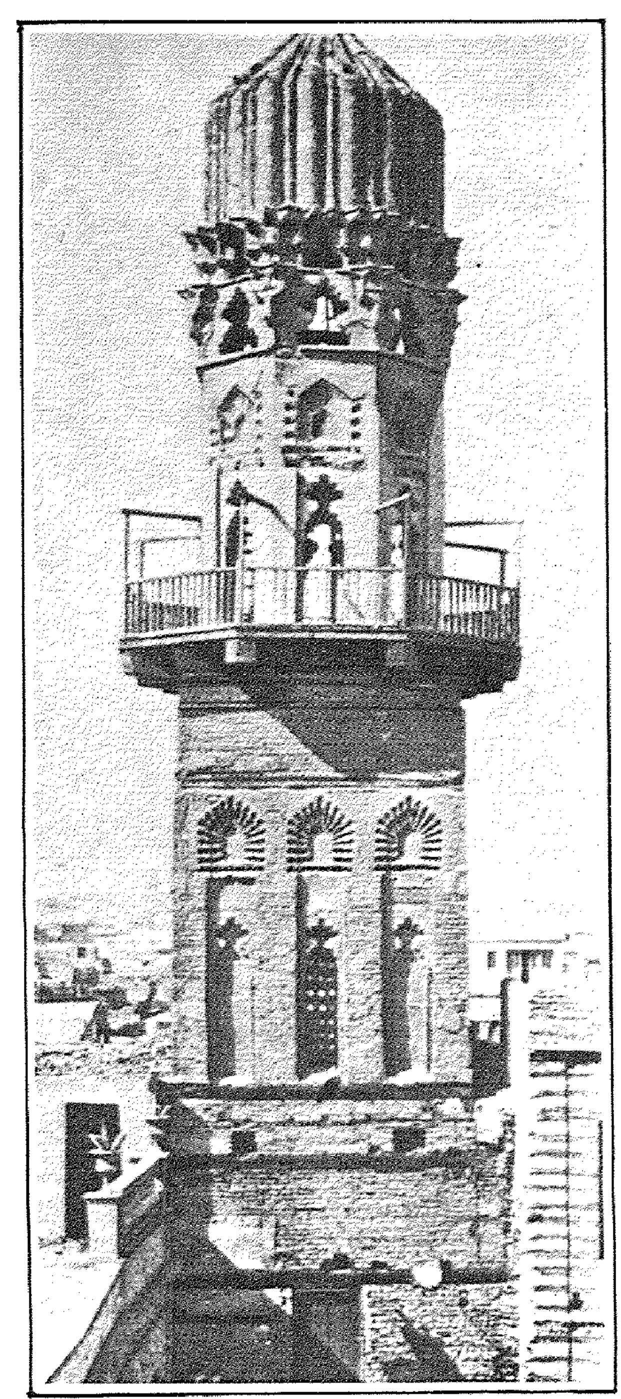


□ مدرسة ومدفن الصالح نجم الدين ـ من أهم مباني العصر الأيوبي في مصر.

ويذكر بعض المؤرخين أن نظام الكمائن نظام سلجوقي قد نقله منهم صلاح الدين والذي ساعد على تطبيقه بنجاح تضاريس بلاد الشام التي جمعت بين الأودية والجبال والهضاب.

ومن الأساليب التي كانت تسبق المعارك والحرب عند صلاح الدين «أسلوب الاستكشاف» فقد جرت العادة أن يقوم «اليزك» أي الطلائع بالاستطلاع وجلب الأخبار عن معسكرات العدو وكان لهؤلاء، أي اليزك تمرين خاص على الأعمال التي يكلفون بها، وقد نجح هؤلاء نجاحاً باهراً في أداء مهمتهم الأخبارية الاستطلاعية، بناء على تقارير اليزك استعد صلاح الدين عسكرياً للدفاع عن بيت المقدس، هذا وكانت تعهد إلى اليزك في بعض الأحيان، مهمة مناوشة العدو أو استدراجه إلى كمين أو إلى معسكر إسلامي.

وهناك نظام التجسس الحربي الذي استخدم فيه صلاح الدين بعض المستأمنين الإفرنج والأسرى الإفرنج، حيث أمدوه بتفاصيل دقيقة عن حالة جيوش الأعداء المعنوية والمادية ويدخل في هذا الباب العيون التي كان يبثها من الفلاحين المسلمين بين المعسكر الإفرنجي في صورة متجولين للفاكهة واللحوم والخبز وكان رئيس هذا الجهاز القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساتي الذي كان بدوره يبلغ السلطان يومياً بمشاهداتهم، ومن الأساليب الأخرى التي استعملها المسلمون في العصر الأيوبي استخدام الإشارات الضوئية والنار في عملية نقل الأخبار وإبلاغها أو التعارف فيما بينهم، الحمام الزاجل وقد استخدمه نور الدين قبل صلاح الدين فاستخدام الحمام الهوادي سنة ١١٧١ ورتب في كل ثغر رجالاً ومعهم الحمام بحيث إذا نزل الإفرنج أحد الثغور وصل الخبر إلى السلطان في يومه، فقد حدث عام ١١٧٤ وهو في بلدة فاقوس بمصر أن ورد إليه خبر مع الحمام الزاجل بأن الإفرنج قد وصلوا الإسكندرية ودمياط فاستعد لهم وكسرهم، وإلى جانب الحمام الزاجل استخدم صلاح الدين البريد المائي حيث



□ مدرسة الصالح نجم الدين ــ المئذنة
٦٤١ ــ ٦٤٨هـ/١٢٤٣ ــ ١٢٥٠م.

استخدم أمهر السباحين الذين يحملون الكتب والنفقات والمؤن على ظهورهم.

وكان من عمل الطواشي في جيش صلاح الدين نقل الأخبار والأوامر إلى جميع وحدات الجيش وملاحظة كل فرد في مكانه وإلا تعرض للموت، يعاونه في أداء مهمته الجاويش فضلاً عن المناداة بالبوق إيذاناً ببدء المعركة أو التجمع حول خيمة السلطان.

ومن العناصر التي قدمت خدمات كبيرة لجيش صلاح الدين، البدو الأعراب، فقد أبلوا بلاء حسناً في المعارك وحرب العصابات والاستطلاع والغارات الليلية والكمائن والدلالة والارشاد إلى الطرق والمسالك، إلاَّ أن الأمر لم يخل من وجود عناصر منهم تعاونت مع الإفرنج فأغراهم المال فيقول ابن جبير أنه لولا البدو ما استطاع ملك الإنجليز ريتشارد قلب الأسد أن يتعرف على خبر قافلة التموين المصرية الذاهبة إلى بيت المقدس وينزل بها الضرر إذ أسفرت عن أسر خمسماية أسير من العرب المسلمين وأخذ ثلاثة آلاف جمل على حد قول أبي شامة.

التوجيه والإرشاد في الجيش الصلاحي

على الرغم من أن الجيش في عهد صلاح الدين كان يتألف من أجناس شتى من العرب والمغاربة والأكراد والترك والسودانيين، وعلى الرغم من أن التفهم لم يكن قائماً بينهم إلاَّ في حدود ضيقة، حتى أن التفاهم بينهم وبين السلطان صلاح الدين كان يتم بواسطة تراجمه في بعض الأحيان، إلاَّ أن هناك هدفاً واحداً كانوا يرغبون في تحقيقه هو الجهاد في سبيل الله وتحرير الأرض من يد الإفرنج الكفار، لذلك فالحرب والاستشهاد أمر واجب ومرغوب فيه لدى العرب المسلمين في ذلك الوقت، ونجد الأمر نفسه أيضاً عند الإفرنج، فقد كانت تعبئة العسكر وبث الحماس في نفوسهم عن طريق الوعظ وترديد الآيات القرآنية التي تحض على الحرب وعدم الفرار أمر مرغوب فيه فنجد أحياناً صلاح الدين وبين يديه جماعة من القراء والصلحاء يتلون كتاب الله ويحذرون من الفرار ويذكرونهم بما أعد الله للشهداء في الجنة مستشهدين بالآيات الواردة بسورة الأنفال والأحزاب ومعظمها ضد الفرار الذي هو إحدى الكبائر الخمس.

إضافة إلى ما سبق كان هناك التهليل والتكبير لتقوية الروح المعنوية والقيام بالصلاة في أوقاتها.

الترفيه والترويح في الجيش الصلاحي

حـرص السلطان صلاح الدين عـلى توفـير وسائل الترفيه المسموح بها في عصره إلى الجيش في معسكراته مدخلاً بذلك السرور إلى نفوس القادة والجند فكان مثلاً يستقبل قادة الجيش عند باب سرادقه بالاحترام والتبجيل باسطاً لهم أفخر الأبسطة والثياب مقدماً لهم أطيب اللطائف وأطيب التحف وأشهى الأطعمة وألذها ثم بعد ذلك يعـرض لهم ألوانـاً من الرقص والغنـاء والضرب على المزامير والطبول والدفوف.

ديوان الأسرى

كـان هناك ديـوان في الدولة الصـلاحيـة، وهو ديوان نجده قبل صـلاح الدين في الدولة الإسـلامية، هـو ديوان الأسـرى، فكان هـذا الديـوان يمسك سجـلات تدون فيهـا أسمـاء الأسـرى من المسلمين والإفـرنج وطريقـة فك أسارهم، فقد كان صلاح الدين يحرص على فكاك الأسرى المسلمين وخاصة المغاربة منهم لأنهم غـرباء عـلى أهلهم، وفي إحدى المـرات مرض صلاح الدين ونذر إن شفي من مرضه لينفقن اثني عشر ألف دينار لفداء الأسرى المغاربة، وقد شاركه في هذه الصفة الطيبة تاجران دمشقيان من مياسير التجـار همـا نصر الدين بن قوام وأبو الدر ياقوت، ولا يكاد مغربـي يخلص من الأسر إلّا على يديهما، ويقول ابن جبير في رحلته إن ظاهرة فكاك أسرى المسلمين من المغاربة قد عمت ولاتكاد تجد وصية تخلو من تخصيص مبلغ من المال لفداء الأسرى المغاربة لبعدهم عن بلادهم.

وكان ديوان الأسرى يبادل الأسرى الإفرنج الذين عنده أو أسرهم بأسرى المسلمين، ففي عام ١١٨٧م وهو عام التوفيقات الصلاحية قد خلص أكثر من عشرين ألف أسير، هذا إلى جانب ما كان يقوم به من جهـد في شراء الأسـرى المسلمين من تجار الإفرنج مقابل عمولة مناسبة لهم حيث كان الإفرنج يبيعون أسرى المسلمين الذين لم يفك أسرهم.

الخدمات الطبية في الجيش الصلاحي

تطورت الخدمات الطبية في عصر نور الدين زنكي وبالتالي في عصر صلاح الدين فنجد هناك البيمـارستـانـات في دمشق وحلب والقـاهـرة والإسكنـدرية، وقـد أُنْشِئت لمعالجـة الجرحى والمرضى وجهزت بالمعدات اللازمة وزودت بالأطباء الاختصاصيين ومن هذه البيمارستانات ما أمر بإنشائه صلاح الدين عام ١١٨١ وأوقف عليها الأوقاف وجعل العلاج فيها مجاناً، ويصف لنا ابن جبير أحدهـا بعد أن زاره بمصر في أواخر عام ١١٨٢ فقد رأى مائة من خزائن العقاقير وأنواع الأشربة وأسرة المرضى كما أمر بإنشاء بيمارستان ثالث في الإسكندرية خصصه لمعالجة الغرباء وكانت كل هذه البيمارستانات تحول إلى مستشفيـات عسكريـة زمن الحرب لاستقبـال الجـرحى والمـرضى من الجنـود، نـاهيـك عن المستشفيات الميدانية العسكرية التي كانت ترافق الجيوش أثناء المعارك.

دور المرأة العربية في عصر حطين

لم تكن التقاليد الاجتماعية والدينية تسمح للمرأة بالظهور على مسرح العمليات الحربية، إلا أن ذلك لم يمنعها من أن تقوم بدورها في الجهاد والتحرير قدر استطاعتها خاصة في الخدمـات الطبية في المستشفيات الميدانية، ويورد بعض المؤرخين المعاصرين أن عصمت الدين خاتون بنت معين الدين أنر أرملة السلطان نور الدين وزوجـة السلطان صـلاح الدين من بعـده في مؤخرة العسكر لمداواة الجرحى وتضميد الجراح وكذلك ست الشام بنت أيوب أخت صلاح الدين ويقال أنها صنعت الأدوية والمعاجين والعقاقير وفـرقتها عـلى الجرحى والمـرضى من المدنيـين والعسكريين.

كما أن هناك من النسوة من كن يثرن حماسة الجنـد في القتـال مثـل أم عـلي تقيـة بنت أبـي الفـرح غيث بن عبد السـلام بن محمـد الأرمنازي التي نظمت قصيدة حربية ووصفت الحرب وما يتعلق بها أحسن وصف وأهدتها إلى الملك المظفر بن أخي صلاح الدين، على العموم يمكن القـول أن المـرأة العـربيـة، في العصر الأيوبـي، شاركت الرجل في كل الميادين التي

كانت تسمح بها تقاليد العصر.

خلاصة القول هذا هو الجيش الذي حارب به صلاح الدين والذي به انتصر على الأعداء والذي لم يكن متفوقاً تفوقاً ظاهراً على جيش الإفرنج وبه قرر مصير الهجمة الاستيطانية التي تعرض لها وطننا العربـي إبان العصور الوسطى، وبهذا الجيش حقق الوحدة بين مصر وسوريا التي كانت اساساً هاماً في كسب الانتصارات، هذا إذا أضفنا إلى ذلك الاستراتيجية الفذة التي اتبعها صلاح الدين في حربه مع الإفرنج وتكتيكه المرن الحاذق.

واليوم ونحن نواجه هجمة جديدة تشبه هجمة الإفرنج في عصر الحروب الصليبية وهي الهجمة الصهيونية فكلا الهجمتين رفعت شعار الدين وتحرير الأرض المقدسة ورغبت في الاستيطان فيهـا، من أجل استغـلال عواطف الجمـاهـير المؤمنة، وكما أنجز العرب مشروعهم القائم على طرد الإفـرنج من بـلادهم سينجـزون اليـوم ومستقبلاً ولا شك، مشروعهم في تحرير الأرض والإنسان، ولعل وحدة الهدف والمصير ووضوح السبيل إلى تحقيقهما، واستراتيجية كاستراتيجية صلاح الدين وعزماً كعزمه وقومة واحدة تقوم بها الأمة العربية، تكفل كلها تخليص البلاد من خطر الصهيونية الجاثم فوق الأرض العربية وتحقق الحلم في إعادة الأرض إلى أهلها وإقامةدولهم المستقلة في تراث وطنهم الحر.

المصادر والمراجع

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١.
(٢) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، ج ١٩٨٧/٦.
(٣) ابن جبير، الرحلة، دار صادر ودار بيروت، ١٩٥٩.
(٤) ابن شامة، الروضتين في أخبار الدولتين.
(٥) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية.
(٦) ابن خلكان، وفيات الأعيان.
(٧) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب نشر الدكتور جمال الدين الشيال، ١٩٤٣.
(٨) ابن منقذ أسامة، الاعتبار.
(٩) أبو الفداء إسماعيل، المختصر.
(١٠) جب، صلاح الدين الأيوبـي.
(١١) حتي فيليب، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ج ٢، دار الثقافة، ١٩٥٩.
(١٢) الدباغ مصطفى، في بيت المقدس، بلادنا فلسطين، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٥.
(١٣) رانسيمان س. تاريخ الحروب الصليبية ثلاثة أجزاء، دار الثقافة، ١٩٨٦.
(١٤) زابوروف ميخائل، الصليبيون في الشرق، دار التقدم موسكو ١٩٨٦.
(١٥) زكار سهيل، مسيرة التحرير من دمشق القدس.
(١٦) مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية.
(١٧) سعداوي نظير حسان، جيش مصر من ايام صلاح الدين.
(١٨) الحرب والسلام زمن العدوان الصليبـي، القاهرة ١٩٦٧.
(١٩) العريني السيد الباز: الشرق الأدبـي في العصور الوسطى (١) الأيوبيون، دار النهضة العربية.
(٢٠) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك.

□ ألقيت هذه الدراسة في «ندوة حطين» التي انعقدت في دمشق في تموز/يوليو ١٩٨٧، بمناسبة الذكرى المئوية الثامنة لمعركة حطين.

السوق الاقتصادية الأوروبية المشتركة

● في حزيران (يونيو) ١٩٥٥، اجتمع في ماسينا وزراء خارجية الدول الست الأعضاء في السوق الأوروبية للفحم والفولاذ واتفقوا على القيام بمسعى مشترك لتطوير الطاقة النووية وإنشاء سوق مشتركة. وبعد دراسة هذا الموضوع، صدر تقرير عنه في نيسان (ابريل) ١٩٥٦. وبعد التفاوض، وقعت الدول الست بإمضاءاتها على «مواثيق روما» التي انشأت السوق الاقتصادية الأوروبية المشتركة، والسوق الأوروبية المشتركة للطاقة النووية، في ٢٥ آذار (مارس) ١٩٥٧. وفي النصف الأخير من ١٩٥٧، ابرمت المجالس النيابية في الدول الست مواثيق روما، فخرجت السوق الأوروبية المشتركة إلى حيز الوجود في أول كانون الثاني (يناير) ١٩٥٨ وكانت مؤلفة من كل من فرنسا، ايطاليا، بلجيكا، المانيا الاتحادية، هولندا واللوكسمبورغ. وفي أول كانون الثاني (يناير) ١٩٧٣ زاد عدد الدول الأعضاء بانضمام بريطانيا وجمهورية ايرلندا والدانمارك. وهناك ٢١ دولة مرتبطة بالسوق المشتركة باتفاقات خاصة، كاليونان، والمغرب، وتونس وتركيا.

وتتكون السوق المشتركة من أربع مؤسسات رئيسية هي: المجلس الوزاري، واللجنة الأوروبية، والبرلمان الأوروبـي ومحكمة العدل.

ويتألف المجلس الوزاري من وزير تنتدبه كل من الدول الأعضاء. وهو يقرر سياسة السوق المشتركة على أساس المقترحات التي تتقدم بها اللجنة الأوروبية، ويتخذ قراراته بالأغلبية، أو بالأغلبية المطلقة، أو بالاجماع، حسب القضايا المقترع عليها.

وفي اللجنة الأوروبية التي هي الهيئة الموجهة والتنفيذية للسوق، ١٣ عضواً. وهم مسؤولون أمام السوق بمجموعها، وعليهم أن يتصرفوا باستقلال عن حكوماتهم، والمهمة الأساسية لهذه اللجنة هي المساهمة في وضع سياسة السوق وتنفيذ البرامج التي ينص عليها ميثاق روما أو التي يقررها المجلس الوزاري على التوالي.

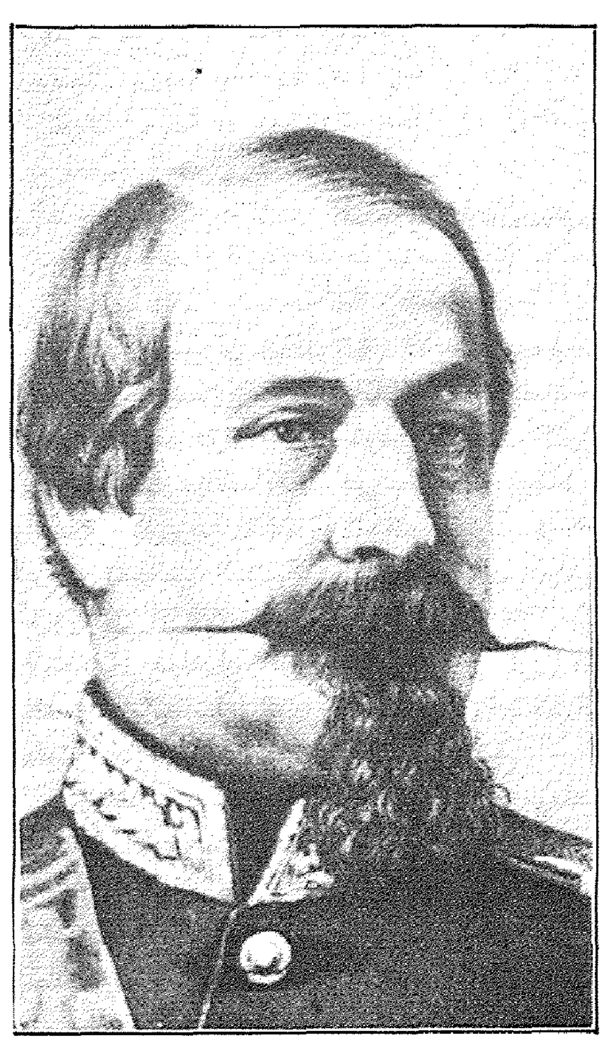
ويتألف البرلمان الأوروبـي من ١٩٨ عضواً تنتدبهم المجالس النيابية في الدول الأعضاء. (في مطلع ١٩٧٣، فرغ ١٦ مقعداً، لأن حزب العمال البريطاني رفض أن ينتدب حصته من الأعضاء). وللبرلمان الحق في أن يستجوب اللجنة الأوروبية ويناقش تقاريرها ويجبرها على الاستقالة بأغلبية ثلثي عدد اصواته. وهو يجتمع سبع مرات أو ثمـاني في السنة (عـادة في ستراسبـورغ، مع أن مقـره في اللوكسمبورغ).

أما محكمة العدل التي تتألف من ١٣ قاضياً و ٣ مدعين عامين، فمهمتها مراقبة العمل بأحكام قوانين السوق المشتركة وإصدار حكمها في تفسير ميثاق روما وتطبيقه.

وهناك عدة لجان استشارية للسوق وهي: اللجنة الاقتصادية والاجتماعية، ولجنتان: إحداهما للسياسة الاقتصادية القصيرة المدى، والثانية للسياسة الاقتصادية البعيدة المدى. وهناك أيضاً لجنة الموازنة، ولجنة حاكمي المصارف المركزية، ولجنة المواصلات والنقل، واللجنة الادارية للضمان الاجتماعي الخاص بالعمال النازحين. وللسوق المشتركة أيضاً صندوق اجتماعي، وصندوق انمائي، ومصرف استثمار مالي، وصندوق للتوجيه والضمان الزراعي.



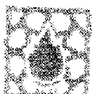
□ بسمارك.



□ نابليون الثالث.

نابليون الثالث ينتصر بلعبة الباليت وبسمارك يثأر باحتلال فرنسا

إعداد : بيار- روبير لوكليرك
ترجمة : إنعام الجندي



كان نابليون الثالث شديد الاعجاب ببسمارك، يوم لم يكن بسمارك إلا الكونت دوبسمارك. وكان الكونت معجباً كذلك بشخصية الامبراطور نابليون الثالث.

وكان الامبراطور يتوقع للكونت البروسي مستقبلاً سياسياً هاماً، لما أنس فيه من ذكاء، وطموح، ومعرفة، وثقافة.

وكان يأمل أن يتعاونا حين يبلغ بسمارك المستقبل الذي توقعه له. فلم يكن ضد مطامح بروسيا التوحيدية. بل كان يرى في توحيد الامارات الألمانية بزعامة بروسيا، علامة خير لأوروبا. فما أن تصبح دولة قوية يمكن التفاهم الفرنسي البروسي، فترتاح أوروبا من الحروب وتلتفت إلى التنمية والانتاج. وتقتسم فرنسا وبروسيا بلجيكا، وتحل مشاكل البلدين بالحسنى.

يذكر العديد من الكتاب، تلك الأمسية التي كان فيها بسمارك ضيف نابليون الثالث، في قصر كومبيني.

كانت أشعة الأصيل الشقراء، تلوح حدائق القصر، في ذلك اليوم الخريفي الحالم. ورغم ذلك أشعلت الثريات جميعاً في قاعة لعب الورق، لتبهر ستين ضيفاً من ضيوف الامبراطور الذي أقام أول حفل استقبال، بعد عودته من جولة في مقاطعات وسط فرنسا، ثبت له خلالها أن شعب فرنسا متعلق به أشد التعلق، ولما تمض عشر سنوات على إعلان الامبراطورية.

تجلى المدعوون في أبهج منظر. كانوا جميعاً يرتدون «الفراك» الأزرق والبنطال الأسود. أما الكلسات فكانت سوداء كذلك.

وارتدت النساء تلك الفساتين الواسعة المزينة بالعقد والوشي والجواهر. وزغردت ضحكاتهن في فضاء القاعة، فارتعشت باقات الزهر الاصطناعي على صدورهن، لم يكن يحببن تلك الورود. ولكن الامبراطورة أوجيني أحبت هذا الزي، فقلدتها فيه جميع نساء فرنسا.

تشكلت حلقات، راحت تتحدث في مواضيع شتى. أو تروي النكات، فتتعالى الضحكات، وكان سيد الموقف، الدوق فييل دوكاسل.

رجال الأدب

كنت ترى هناك ألفرد دوفيني، وبروسبير مريمي والناقد سانت ــ بوف، وهم يناقشون «الأشعار البربرية» للكونت دوكيل، أو «سالامبو» لفلوبير، فهما أحدث الانتاج الأدبي. ثم يعرجون على «البؤساء» لفكتور هوغو، الذي رفض تلبية دعوة الامبراطور.

أما مورني، وبرسينيي فقد اعتزلا بعيدا، وراحا يناقشان السبيل إلى كبح جماح الجمهوريين في الانتخابات المقبلة، وحث الامبراطوريين المتطرفين على المزيد من الجهد «لقمع» الجمهوريين.

رجال السياسة والمال

غير بعيد من هؤلاء، رجال السياسة والمال: البارون هوسمان المستوزر، الذي كان يزعج الامبراطور بإلحاحه على اختياره وزيراً. البارونة روتشيلد اليهودية المعروفة بحضور كل المناسبات والحفلات والدعوات، خاصة الرسمية، والأمير مترنيخ، وكانت تدور بينهم أحاديث بصوت خفيض، حتى لا يسمعه الآخرون.

أما الكونت دوبسمارك فكان يتجول في خفة، وعلى نحو لا يكاد يلحظه أحد، وكل همه أن يلفت إليه السيدة مترنيخ، صديقة الامبراطورة، التي يطمح إلى أن توليه عطفاً خاصاً.

كان ضخماً، أنيقاً، خجولاً بعض الشيء، يتميز بنظرة ثاقبة، وابتسامة لطيفة. وكان في السابعة والأربعين من عمره، وهو في أوج مجده، فمنذ انتخب عضواً في مجلس الدييت البروسي، والأنظار تتجه إليه، وصعوده سلم الانتصارات مستمر. وقد اختير قبل تلك الأمسية بقليل، لأهم منصب يطمح إليه كل بروسي.

لم تكن بولين دومترنيخ تشعر بأي تعاطف نحو الكونت دوبسمارك. ربما لأنها تضمر حقداً خاصاً لبروسيا! مع ذلك استقبلته في تلطف شديد، ولهجة مرحة فهي تعلم أنه مسافر الغداة إلى برلين، حيث ينتظره الملك غليوم ليعهد إليه برئاسة مجلس الوزراء، ولا يجوز التظاهر بعدم الاكتراث تجاه هذا الموقع.



□ الامبراطورة اوجيني.

قالت: هل تعلم يا سعادة الكونت ما يسمي الحمر والاشتراكيون كومبيني؟.

ــ لا يا أميرة.

ويا للمدخل الأنثوي الرائع الذي بدأت به الحوار! كان بسمارك يعرف الجواب حتماً، ولكنه كان حريصاً على عدم التصريح بما يعلم!.

ــ يسمونها سدوم وعمورية!... ألا يخيفك ذلك.

ــ أيتها الأميرة، لست بريئاً إلى الحد الذي تتصورين... أكره الرحيل... وإني أتمتع كثيراً في فرنسا!.

ــ هل ستعود ثانية؟.

ــ آمل ذلك! ولكن من يدري متى أعود؟.

بدء السهرة

أقبل الليل، وبدأت الأنظار تتجه بين الحين والحين إلى البوابة الكبيرة. وقد سقطت المحادثات جميعاً. فقد ملّ معظم المدعوين ما كان بينهم من مواضيع حوار.

اخيراً فتحت البوابة، وساد صمت شديد!

واصطفت الصبايا اثنتين اثنتين على طول الممر داخل القاعة، وبرزت الامبراطورة تصحبها وصيفتاها. وكانت ترتدي ثوباً حريرياً واسعاً عند أطرافه السفلى، منقوشاً بزهور صغيرة. وقد حلا عنقها بصفي لؤلؤ.

انحنى الرجال تحية للامبراطورة، ولوت النساء ركبهن في انحناءة لطيفة، ابتسمت لزوارها، ولاطفت كلاً بكلمات قليلة عجول، وتوقفت وقفات سريعة عند بعضهم، ثم استقرت أخيراً بين صديقاتها الخلص: آن مورا، دوقة مالكوف، والسيدة مترنيخ، التي حدثتها بما كان من حوارها مع بسمارك.

ثم تشكلت المجموعات السابقة من جديد. ولكن لم يطل الوقت، حتى فتح مصراعا البوابة من جديد وأطل الامبراطور، واتخذت المراسيم ذاتها التي اتخذت عند دخول الامبراطورة. وكان الامبراطور يلاطف المدعوين بكلمة هنا، وجملة هناك، حتى بلغ الامبراطورة، فحياها ووقف معها وصويحباتها، واستأنف الحضور سمرهم.

قدم مدير التشريفات وأعلن: «أصحاب الجلالة مدعوون إلى الطعام».

عشاء كئيب

مد نابليون ذراعه للامبراطورة أوجيني. وتبعه المدعوون زوجين زوجين، حسب ترتيبهم إلى مائدة الطعام، عن يمينه أو شماله.

أنارت القاعة خمس ثريات ضخمة. ولمعت الأواني الفضية في النور. وجلس الامبراطوران متقابلين. وجلس كل في المقعد المخصص له، وكان بسمارك إلى يمين نابليون.

رافقت الصنف الأول همسات عجلى. لم يجرؤ أحد على رفع صوته، أو إطلاق طرفة تزيل الجمود، وكان نابليون يأكل ويشرب قليلاً. بينما تتحدث الامبراطورة بصوت خفيض مع جيرانها، ملاطفة. رغم أنها، منذ وفاة أختها، تعتزل عن الآخرين ولا تعنى إلا بالقضايا السياسية.

كان الضيوف جميعاً لا يأكلون إلا قليلاً، عدا بروسبير ميريمي الذي كان يلتهم الطعام التهاماً. لقد كانت له دالة خاصة على العائلة، فقد طالما أجلس الطفلة النحيلة أوجيني دومونتيجو ــ التي غدت الامبراطورة ــ على ركبتيه مدللاً.

ولم يكن يجاريه بافتراس الطعام إلا سانت ــ بوف.

وكان الضيوف السياسيون يتجهون بأنظارهم إلى الامبراطورة أوجيني التي «تذوقت» ملاذ السلطة منذ حرب ايطاليا، التي كانت فيها على تماس دائم بالأحداث. وكان لها بينهم كاتمو أسرارها، ومن تحميهم، وخلصاؤها، وكان لها آراؤها الخاصة، في نهاية المطاف.

كانت في السادسة والثلاثين من عمرها. ولكنها كانت تتمتع بذكاء حاد، وشخصية قوية. وقد عملت جاهدة لاقناع الامبراطور بالتحالف مع النمسا، البلد الوحيد الذي حافظ على النظام الملكي القديم. وكانت تفكر، حتماً، بمستقبل ابنها السياسي.

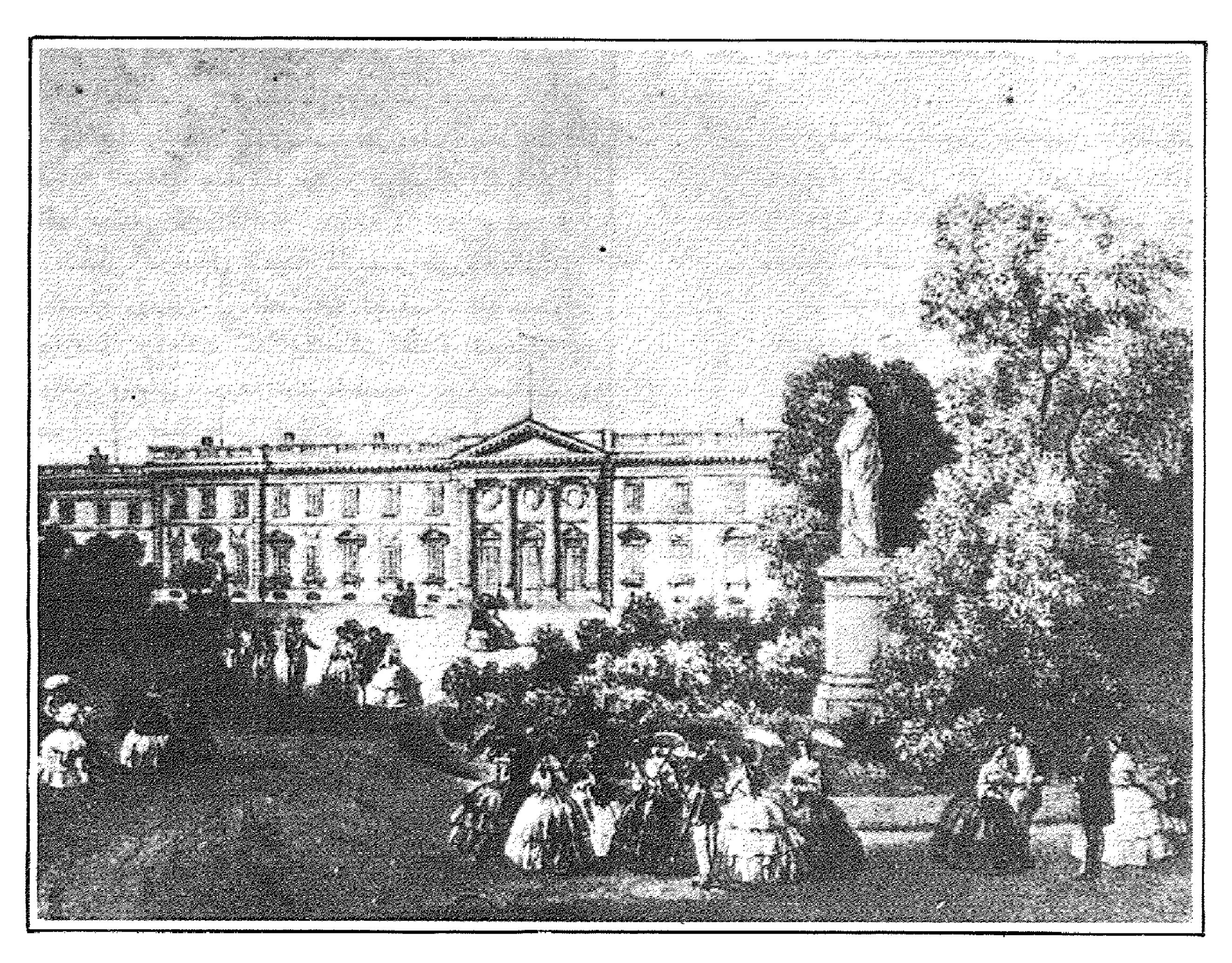
الامبراطور الكاتب

نقر الامبراطور على طرف صحنه إيذاناً بانتهاء الطعام. فنهضت الامبراطورة، وتشكل الأزواج، وسار الموكب إلى قاعة لعب الورق، وقدمت القهوة والمهضمات.

وكانت لفتة لطيفة من الامبراطور، إذ خف إلى الكتاب يبادلهم الأحاديث والطرف، وهمس في أذن سانت بوف، أنه يقوم بكتابة رواية «حياة قيصر» لذلك يطمح إلى نصائحه، ويرجو أن يزوره في قصر التويلري متى شاء، لهذه الغاية. فقبل سانت الدعوة بسرور بالغ. وأسر إلى فيني أنه أمر بإعادة تمثيل مسرحية شاترتون في الكوميدي فرانسيز، فانحنى الشاعر انحناءة بروتوكولية، شاكراً. ولم ينس أن يوزع ابتساماته وبعض الجمل مع مريمي، وساردو. وكان الجميع يلاحظون غياب الشاعر العنيد، المهيمن، فيكتور هوغو، الذي آثر البقاء على الضفة الأخرى من الرين، على حضور حفل الامبراطور. كان يتمتع آنذاك بكتابة روايته الجديدة «٩٣».

ولكن الامبراطور كان أشد احتفاء بضيفه بسمارك الذي اختير رئيساً للمجلس البروسي، والذي لم يبق له في فرنسا إلا ساعات. فقد مضى إليه، محيياً هذا أو تلك، حتى استقر معه.

كان بسمارك يسترعي الامبراطور بذكائه، وطلعته وشموخه. ولعله كان راغباً في استمالته إليه. كان يشعر بنوع من الصداقة تشده إلى



□ حفلة في قصر كومبيني.

بسمارك، ويتمنى أن يقوم بينهما حلف نافع لأوروبا كلها، فتمحي الخلافات، وتزول الحروب، وإن على حساب بعض البلدان الأوروبية، وخاصة بلجيكا.

والواقع أن فرنسا وبروسيا قد ازداد تقاربهما منذ أكثر من عام. وقد عرف عن بسمارك حبه فرنسا، ويبدو أن الملك غليوم قد وقع اختياره عليه لأرفع المناصب، فلماذا لا يحاول نابليون توطيد العلاقة معه؟.

وكان بسمارك من جهته معجباً بنابليون وشخصيته اللطيفة، وذكائه وسعة اطلاعه. قال الامبراطور: ستتركنا أيها العزيز بسمارك؟ إني آسف لذلك، رغم غبطتي باختيارك للمنصب الذي أنت أهل له!.

اجاب بسمارك: أنا الآسف يا سيدي أن أحرم من شرف القرب الدائم من جلالتكم!.

ــ كنت أتمنى لو تتحقق هذه الرغبة المشتركة.

انقطع الحوار حين قدم الأمير جوزيف ابن نابليون. فقد جرت العادة، بعد عشاء كل يوم، أن يقبل الأمير ليحيي والديه، مصطحباً كلبه الذي لا يتركه لحظة. وقد دعاه الامبراطور لمشاركته لعبة «الباليت»، مما جعل الامبراطورة تتذمر، فهي لا تحب لولدها أن يتأخر عن موعد نومه، بينما رغب الامبراطور في اطلاع بسمارك على حذق ابنه في اللعبة رغم صغر سنه.

دعا بسمارك إلى مشاركته اللعبة، وسارا مع الأمير الصغير نحو الطاولة، وتبعهم الضيوف.

الخسارة والربح

اللعبة سهلة، ولكنها تقتضي مراساً وحذقاً. وتتكون من طاولة تغطيها رقعة خضراء، عند ثلثها الأخير دائرة صغيرة بيضاء. والطاولة مؤطرة بسياج من القضبان القليلة الارتفاع.

يمسك كل متبار بصفيحة مدورة. ويلقي بها محاولاً جهده أن تكون أقرب من صفائح الآخرين إلى النقطة البيضاء. وقد تخرج خصمك من اللعبة إذا أصبت صفيحته فقذفتها بعيداً، إلا إذا أعاد الكرة وغطى بصفيحته النقطة البيضاء.

دعا الامبراطور بسمارك إلى قذف صفيحته. فحبس جمهور الضيوف أنفاسهم، فهم لا يريدون أن ينتصر على الامبراطور بأية حال.

قذف بسمارك، فوقفت صفيحته قريباً جداً من النقطة. ثم قذف الطفل فجاءت قريبة من صفيحة بسمارك. وقذف الملك فكانت صفيحته أقرب. فعلا التصفيق والهتاف.

كان على بسمارك أن يعيد الكرة. فحبس الضيوف أنفاسهم ثانية. ولما قذف صفيحته ضربت صفيحة الامبراطور، وأبعدتها عن النقطة، فصفق الجمهور مسايرة، ولكن وجوههم كانت ممتعضة.

جاء دور الامبراطور ثانية. ساد الصمت، وتعلقت الأنظار بيد الامبراطور. ابتسم ابتسامة الواثق من نفسه. وبعد تأن، قذف صفيحته فغطت النقطة البيضاء، فعلا التصفيق والهتاف، وهنأ بسمارك الامبراطور بحرارة.

الامبراطورة إلى النوم والامبراطور إلى محظيته

دقت الساعة الثانية عشرة.

اعتذرت الامبراطورة بحجة الرهق، وانسلت إلى مقصورتها، داعية الحفل إلى مزيد من التمتع بالسهرة.

وتابع الباقون سهرتهم، ولكنهم كانوا ينفضون تدريجياً، حتى كان الامبراطور وبسمارك آخر الباقين.

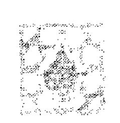
تمنى الامبراطور لبسمارك عوداً سعيداً لبلاده، وحظاً موفقاً في منصبه الجديد، وأبدى رغبته في عودة بسمارك إلى فرنسا زائراً كريماً.

شكره بسمارك وودعه.

وما كاد يغيب عن النظر، حتى سار الامبراطور إلى عربته التي كانت تنتظره لتقله إلى شارع صغير من شوارع المدينة، وإلى بناء متواضع، ثم إلى الطابق الأول، حيث تترقب قدومه جولي لوبوف التي يعرفها البلاط باسم مارغريت بيلانجي.

وهناك قضى أواخر ليله معها، أمام نار حطبية تتأجج في المدفأة، وبعض كؤوس، وأطعمة قليلة. لقد بدا الامبراطور وكأنه رجع عشرين سنة إلى الوراء.

بعد عشر سنوات من ذاك تقريباً، في الرابع من أيلول، كان بسمارك يحتل قصر فرساي، ويثأر من لعبة الباليت في كومبيني. أما نابليون الثالث فقد نفي إلى كريس لوهورست ليقضي آخر أيامه في المنفى. ●



● من وصية الخليفة عمر بن عبدالعزيز لابنه عبدالملك:

«لا تعجل يا بني، فإنه لا قليل من الاثم، فإن الله ذم الخمر في القرآن مرتين وحرمها في الثالثة، وأنا أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة فيدفعوه جملة ويكون من ذلك فتنة».

● «تعلم أن تعتمد على نفسك بتنفيذ الأشياء طبقاً لطريقتك في التفكير. إجعل أحكامك تستحق الاهتمام بثقتك فيها. استثمر فترات منتظمة بالتفكير والتأمل. أحسن وقت لاتخاذ الأحكام هي فترات العزلة عندما يمكنك التفكير في الأشياء بنفسك بدون إزعاج من أحد».

(جرينفل كالير)

● «أنا أعتقد أن كل حق يستدعي مسؤولية، وكل مناسبة تستدعي موجباً، وكل امتلاك يستدعي واجباً».

(روكفلر الابن)

تاريخ السيارة

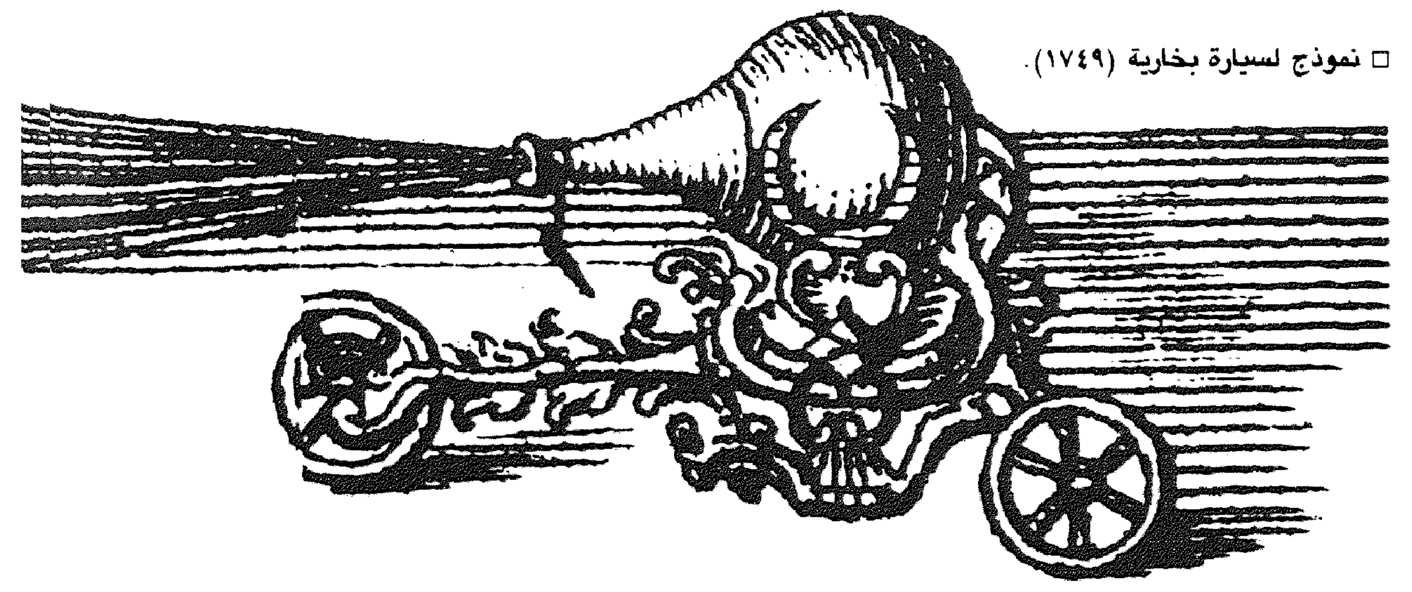
وتأثيرها على الأدب والفن عموماً

ايريخ بيتر

في الثالث من شهر تموز/يوليو عام ١٨٨٦ قاد الميكانيكي الالماني كارل بنز (Carl Benz) — وهو ابن لسائق قاطرة — لأول مرة سيارة بمحرك بنزين، عبر شوارع مدينة مانهايم. وهكذا ولدت السيارة. وكانت بداية لمرحلة جديدة في تاريخ البشرية. وقد تم ذلك عقب مضي خمسين سنة على أوّل رحلة بالقطار بين نورنبرج وفورت. ليس هناك اختراع تقني آخر طبع القرن العشرين بطابعه الخاص كعربة البنزين هذه. فهي غيّرت مجرى حياة الإنسان والطبيعة، وأيضاً المدن والمناظر الطبيعية، والمكان والزمان، وهذه العربة التي هي «نعمة ونقمة» تهدد بأن تصبح في نهاية القرن العشرين كابوسا، وذلك بعد ان تحقق في نهاية الأمر حلم الإنسان في أن يصبح «ذاتي الحركة» (وهي كلمة لاتينية الأصل أوتوموبيل Auto-Mobile أي متحرك ذاتياً).

التغلب على المكان والزمان حلم راود الإنسان منذ القدم، ومن الأكيد أن الصياد في الأزمنة الغابرة كان يفكر وهو يصارع صراعاً مريراً من اجل البقاء في إيجاد وسيلة نقل تساعده على عبور المسالك الوعرة وعلى قطع المسافات الطويلة. وخلال ذلك الزمن البعيد، كان الرجال يجرّون على غصون عريضة فريستهم باتجاه كهوفهم. ولم توجد العجلة إلا عندما توصل الفكر الإنساني إلى وضع ألواح على الأرض حتى

□ نموذج لسيارة بخارية (١٧٤٩).



يتمكن بواسطة ذلك من حمل الأعباء الثقيلة. وكان ذلك الاختراع من أهم الاختراعات التي ميّزت تاريخ الإنسانية.

سارت العربات الأولى في بلاد ما بين النهرين. تم ذلك خلال ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد تقريباً. والراجح أنه كان حوالي سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد وذلك حينما صنع المصريون عربات ذات عجلتين سهلة الاستعمال. وهكذا فتحت العجلة عهداً جديداً في حياة البشرية. وبفضلها تمكن الإنسان من قطع المسافات الطويلة. صحيح أنه قطعها ببطء، غير أن ذلك كان يعتبر انتصاراً كبيراً على الأبعاد اللامتناهية. ولولا هذه العربات لما أمكن للشعوب الأوروبية أن تنتقل بالكثافة المعروفة لدينا.

فكر الإنسان بعد ذلك بقليل في خلق طريقة أخرى لتحريك العربة، ذلك أن استعمال الخيول والثيران والأحمرة أصبح أمراً صعباً ومعقداً. وبهدف بلوغ ذلك، جربت عضلات الإنسان، وقوة الريح. غير أنه لم يتم التوصل إلى النجاح المرغوب.

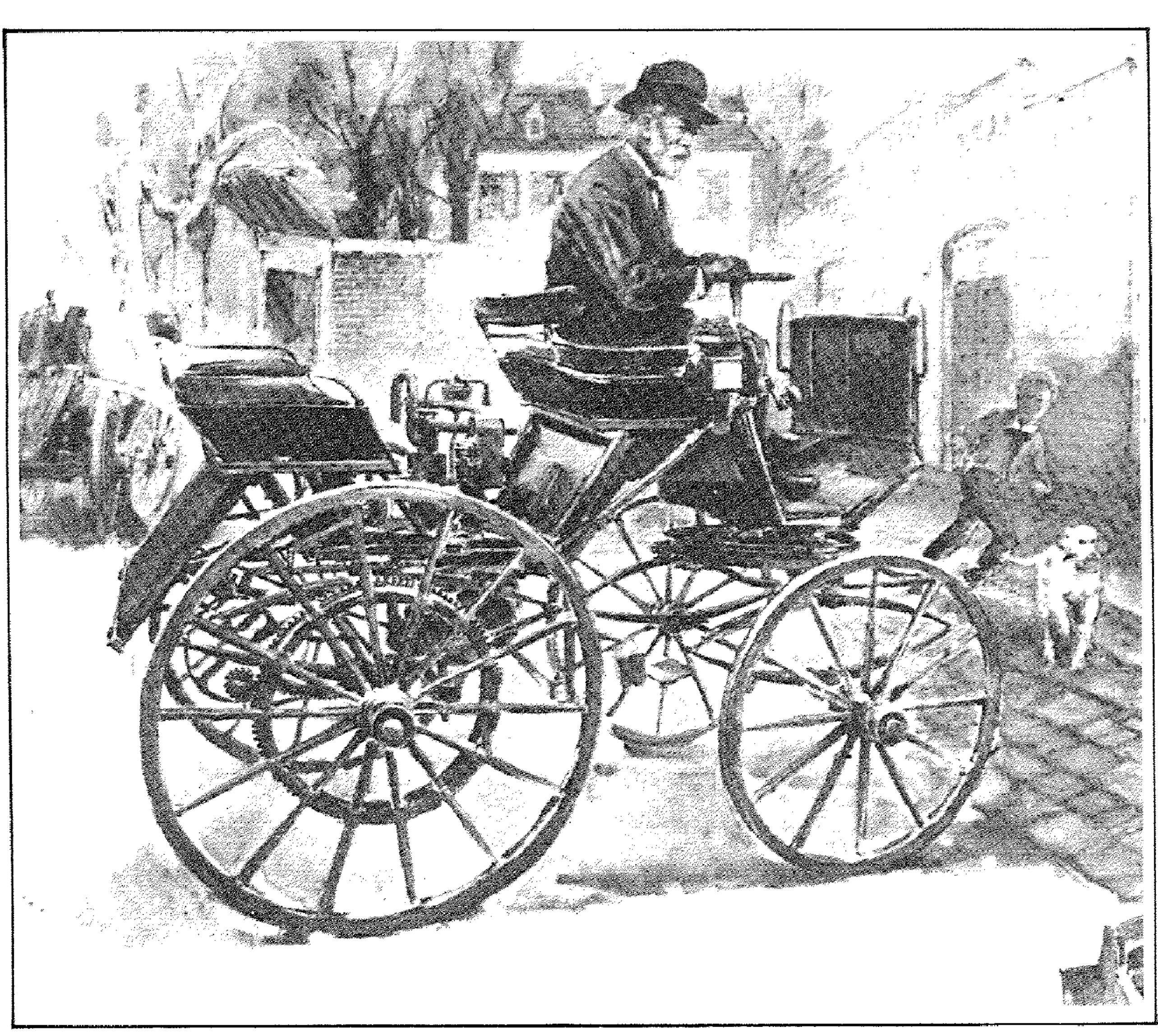
لقد فجّر الفيزيائي والرياضي كريستيان هويجنس (Christain Huygens) باروداً بواسطته يتحرك المكبس. ورغم أن المادة لم تقاوم دفعات الانفجار، فقد ظهرت خلال ذلك الفكرة الأساسية لخلق محرك جديد. وبعد ذلك وضع إسحاق نيوتن (Ishaac Newton) مولد بخار على عجلات، وحرّك العربة إلى الأمام بواسطة قوة دفعات



البخار. وبظهور اختراع جيمس واط (James Watt) للآلة البخارية بدأ عهد جديد.

إن القطار ربط القوة البخارية بالتحرك السهل للعجلات الحديدية على السكك الحديدية. وكان ذلك يعد شيئاً مجدداً وحاسماً. كانت السكك تمثل حاجزاً للتنقل الحر إذ أن الطريق كان محدداً منذ البداية. بالإضافة إلى ذلك تطلب صنع وتطوير القطار أموالاً طائلة. وهكذا بدأ تجريب العربات البخارية — التي كانت تتحرك بحرية في الطرقات. في سنة ١٧٦٩ ولدت العربات البخارية دون سكك. صنع المهندس نيكولاس جوزيف كونيو (Nicolas Joseph Cugnot) نموذجاً لعربة بخارية مخصصة لأربعة أشخاص تقدر سرعتها القصوى بتسعة كيلومترات. غير ان البخار المستهلك لم يكن يكفي إلا لإثني عشر دقيقة. كان كرنيو عقيداً في الفرقة المدفعية. وقد فكر في جر المدافع بواسطة عربته الضخمة، ومنذ ذلك الحين لعبت اعتبارات ومنافع عسكرية دوراً هاماً في اختراع السيارة. وعندئذ تحرّكت عجلة التطور بسرعة مذهلة. لا تعتبر السيارة — ونفس الشيء ينطبق على القطار والطائرة — نتاج عبقري واحد، بل هي نتيجة مجهودات متعددة لفنانين، ومبدعين، وعلماء، ولهواة الاختراعات أيضاً.

الالمانيان كارل بنز (Carl Benz) وجوتليب دايملر (Gottlieb Daimler)، أصيلا الجنوب الالماني، هما مخترعا السيارة المتحركة بفضل قوة ذاتية. والغريب أن هذين المخترعين، بالرغم من أنهما كانا يعيشان في نفس المنطقة، لم يتعرفا على بعضهما أبداً، ولم يلتقيا بالمرة. لقد طور كل من بنز، ودايملر، في نفس الوقت تقريباً الشكل الأساسي للسيارة في صورتها الحالية. ان دايملر الذي سبق له أن صنع في سنة ١٨٨٥ أول دراجة نارية، وهي عبارة عن عربة تحرك بالبترول كان قد تجاوزه بنز بالرغم من ذلك في تطوير «عربة البنزين» ويعتبر بنز الأب الأصلي للسيارة، وذلك بعد أن اخترع عربة بثلاث عجلات حصلت في كانون الثاني/يناير ١٨٨٦ على جائزة الاختراع، وصنع دايملر من جانبه عربة بأربع عجلات ذات محرك أطلق عليها اسم ابنته «مرسيدس» (Mercedes) ويعتبر مردود المحرك، وثبات السيارة على الطريق عند سياقتها



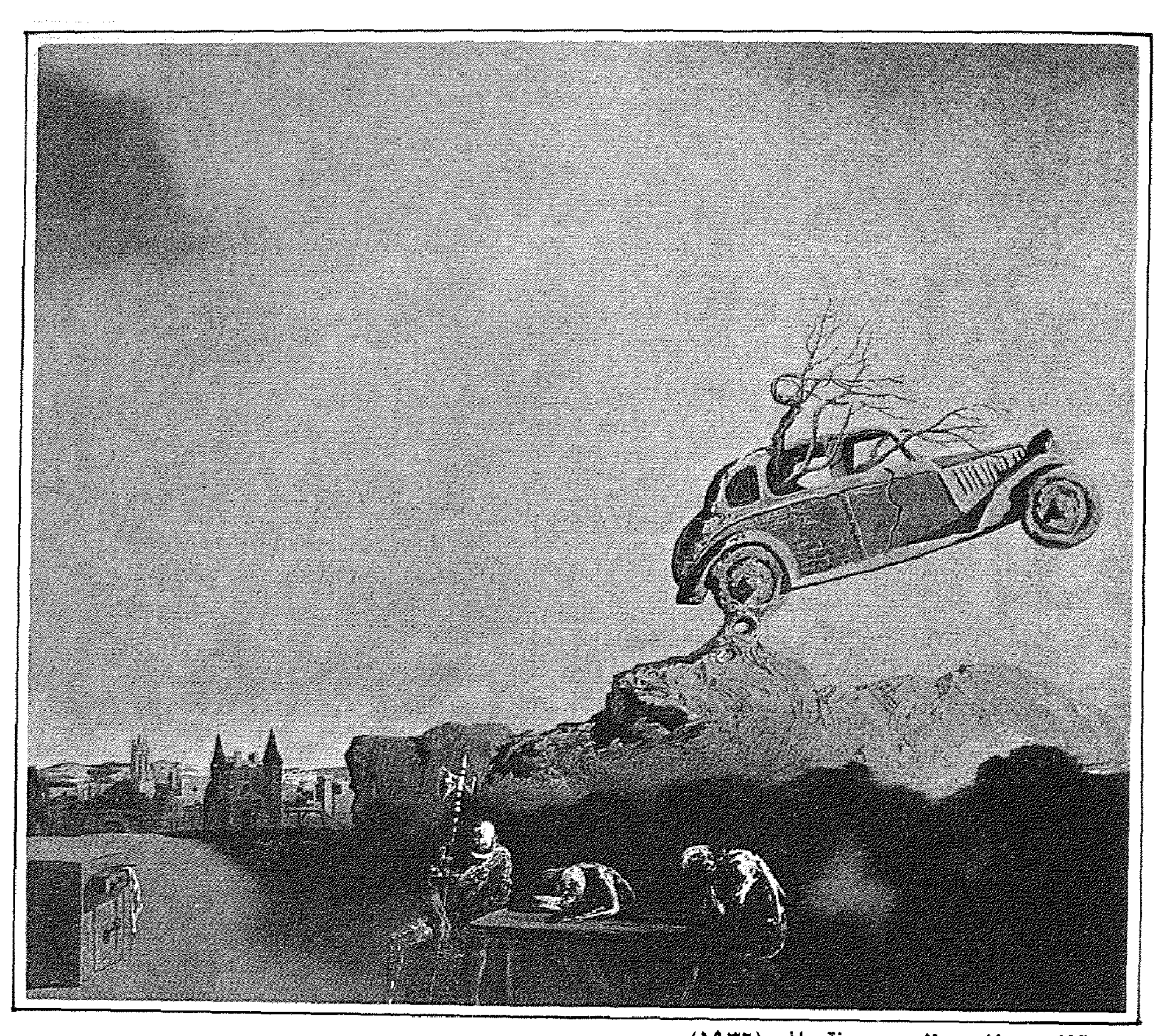
□ غوتليب دايملار في السيارة التي اخترعها (١٨٨٦) ـ صورة لهانس ليسكه (١٨٩٠).

وشكل المرسيدس نموذجيين لبقية تطور السيارة.

لقد كانت قيادة السيارة قبل مستهل القرن العشرين عبارة عن مغامرة. وشأنها شأن القطار، بعثت السيارة بسبب الدوي الذي تحدثه، والرائحة النتنة التي تطلقها، الخوف والفزع في نفوس الناس. وكانت حالة الطرق سيئة مما أدّى إلى وقوع العديد من الحوادث والكوارث المأساوية، وكان السفر بالسيارة صعباً ومعقداً.

ورغم كل هذا احتلت السيارة بسرعة مكانة كبيرة لدى الناس. وابتداء من العشرينات ظهرت العديد من الشركات المتخصصة في صنع السيارة. ويمكن أن نذكر من بينها بالإضافة إلى شركتي دايملر وبنز اللتين اندمجتا سنة ١٩٢٦، مصانع آدلر (Adler Werke) بفرانكفورت، مصانع هورش (Horch) للسيارات في تزفيكا، ومعمل آدم أوبل (Adam Opel) في روسلهايم.

وهكذا صارت السيارة رمزاً للتقدم، هذا الرمز الذي أشاع خلال القرن الثامن عشر، الفكرة التي تقول بأن على الإنسان إذا ما أراد أن يتمتع بحياته دونما حدود، فلا بد أن يوفر الوسائل التي تساعده على ذلك، ولقد كانت السيارة أكثر ملاءة من القطار، وبسرعة أصبحت وسيلة من وسائل المسابقات وأنواع الرياضات التي تتطلب تمارين مجهدة. وأول مسابقة للسيارات جرت سنة ١٨٩٤ وقد فاز بها الفرنسي لوفاسور (Lovassor) الذي قطع المسافة الفاصلة بين باريس وبوردو بمعدل سرعة تبلغ ٢٤,٩ كيلومتر في الساعة. وقد أحاطت آلاف الجموع بالشوارع لمتابعة السباق، وخلال أحد السباقات التي جرت سنة ١٩٠٣، قدر عدد المتفرجين في



□ سالفادور دالي ــ ظهور مدينة دلف (١٩٣٦).

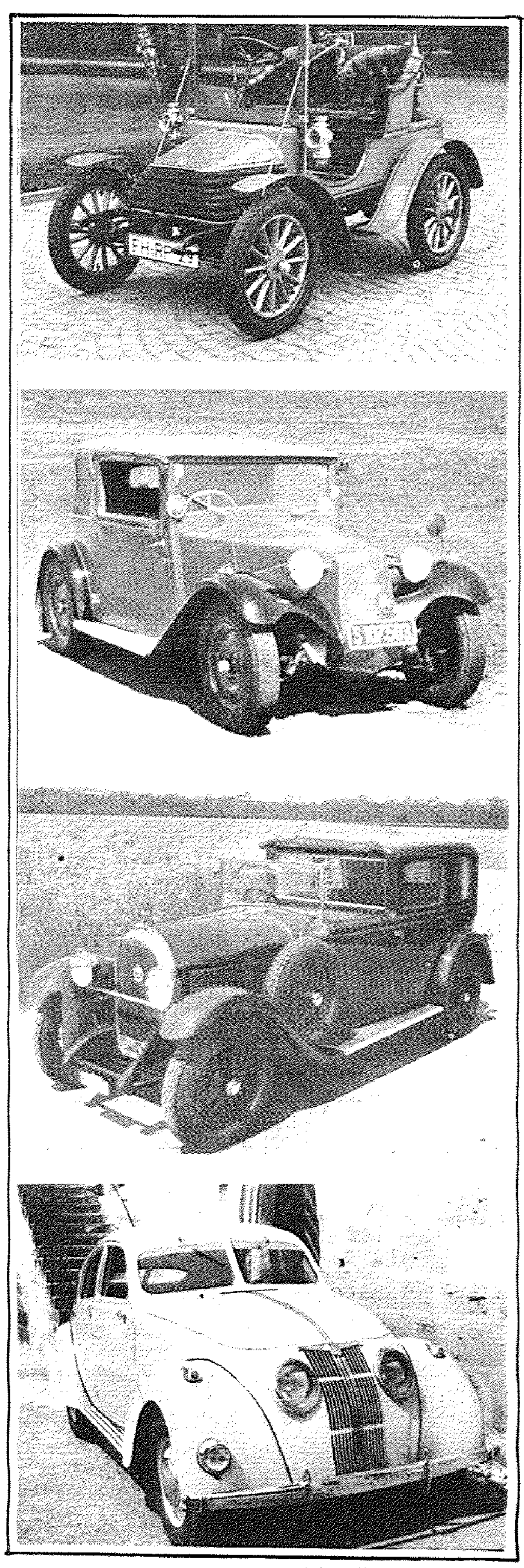
شوارع باريس وحدها بمائة ألف شخص، وفي مقال ظهر سنة ١٩٠٤ حول «الحالة العقلية لسائق السيارة» يشتكي طبيب الأمراض النفسية بول نكة (Paul Nacke) وهو من مدينة هوبيرتوسبرج من عدم الاعتناء الكامل بالحالة النفسية للسائق الذي يقود سيارته بسرعة جنونية. ويقول نكة في مقاله هذا: «لي صديق يسافر كثيراً بالسيارة. وهو لا يقودها بطريقة هادئة ورصينة، بل بسرعة مخفية باعتبار أن ذلك يعتبر بالنسبة إليه نوعاً من أنواع الرياضة. وقد وصف لي بدقة حالته النفسية عند السياقة الأولى وأكد لي أنه يعيش وضعاً شبيهاً بتخدير الحواس، ونوعاً من النشوة اللذيذة يدفعانه إلى الرغبة في المزيد من السرعة، ويجعلانه غير مبال بمن حوله!».

يصف لنا إيليا إهرينبرج (LLja Ehrenberg) في قصته «حياة السيارات» الساحة الباريسية في بداية القرن على النحو التالي: «تتحرك السيارة بطريقة عصبية،، تثب كالكنغر، تقف حيناً، وتقفز فجأة من مكانها حيناً آخر. وهي تملأ الشارع بدخان كريه، ويعلو دويها كما دوي زوبعة ربيعة. وهي عربة مكشوفة، ودون خيول، تنقاد لانفجارات غامضة، وتسير بسرعة فائقة في طريق مشؤوم عبر شوارع باريس». وحتى ذلك الحين كانت السيارة تعدّ امتيازاً للطبقات المترفة، وللأعيان، والبورجوازيين. ولهذا السبب كان الاهتمام بالمتطلبات الجمالية عند تصميم السيارة كبيراً. وكانت أغلب السيارات أنيقة وجميلة، ومجهزة تجهيزاً رائعاً. وهذا ما يفسر ارتباط السيارة بالأنوثة منذ البداية، وقد سارعت وسائل

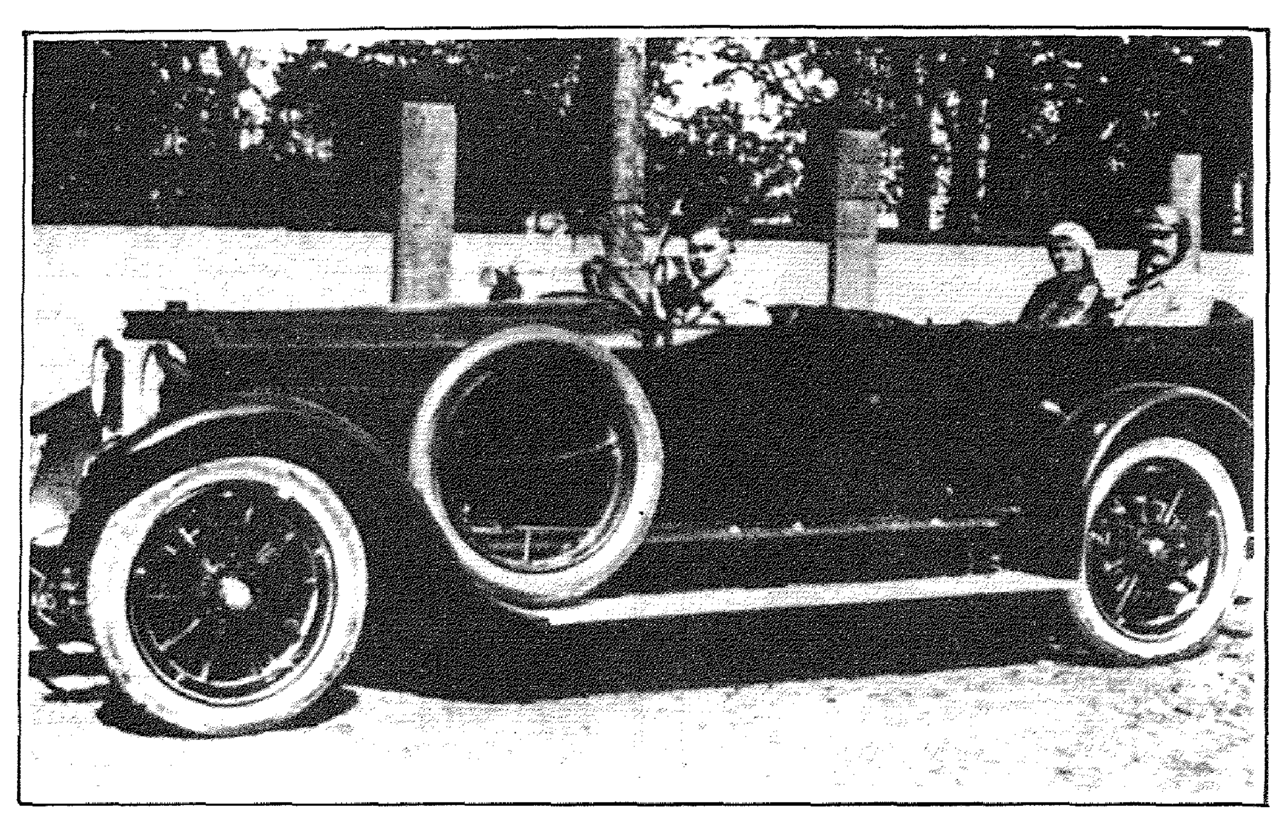
الدعاية إلى أبرز ذلك: في ملصقات الأشهار، وفي الإعلانات الضخمة، كانت المرأة تقف دائماً إلى جانب السيارة حتى يتم جلب أكبر عدد ممكن من المستهلكين. وحتى يومنا هذا يستخدم الأشهار في ـــ في ميدان السيارات ـــ هذه العلاقة الخفية بين السيارة والمرأة.

لم تصبح السيارة قريبة من الشعب إلّا خلال الحرب العالمية الأولى. ألم تكن الحرب في أغلب الأحيان مفيدة بالنسبة للاختراعات؟ وأول من بدأ بترويج السيارة في أوساط الشعب هم الأمريكيون. وقد استعملوا في ذلك طريقة أسهل وأسرع من تلك التي كانت رائجة في أوروبا. وبسرعة أدرك التقنيون ورجال الأعمال الإمكانيات الجديدة التي يوفرها ترويج السيارة بشكل واسع. وبظهور نظام العمل المسلسل، ابتكر هنري فورد (H. Ford) الظروف الملائمة لإنتاج السيارة بأعداد وفيرة وكما كان الشأن بالنسبة للقطار، استعملت وسيلة النقل الجديدة لأغراض عسكرية. والفرنسيون كانوا الأوائل في هذا المضمار. ففي مستهل شهر أيلول/سبتمبر ١٩١٤، وقبل أن يصل الجيش الألماني إلى باريس بقليل، أمر الحاكم العسكري لمدينة باريس الجنرال غاليني (Gallieni) بمصادرة جميع سيارات النقل وذلك لتعزيز الجبهة قرب مارن (Marne). وفي وقت قصير جداً، تم نقل خمس كتائب من المشاة مكونة من ٤٠٠٠ جندي إلى الجبهةحيث مني الجيش الالماني بخسارة فادحة في معركة المارن الشهيرة، وحتى يومنا هذا، لا يزال يتحدث الفرنسيون عن «معجزة نهر المارن».

بفضل طرق الإنتاج الجديدة، تحققت أمنية الشعب في التعرف على العالم بواسطة السيارة، وقد باع فورد أكثر من ١٥ مليون سيارة. وفي فرنسا طبق اندري سيتروان (Andre Citroen) فكرة فورد التي تعتمد نظام العمل المسلسل. وشيئاً فشيئاً انتشرت طريقة العمل الجديدة هذه في جميع أنحاء أوروبا. وفي نهاية العشرينات لعبت السيارة أثناء الأزمة الاقتصادية العالمية دوراً هاماً: شجع روزفلت (Roosevelt) في الولايات المتحدة تعبيد الطرقات السريعة لتشغيل العاطلين عن العمل. ونسج موسوليني



□ مجموعة من السيارات التي بدات الظهور بعد الحرب العالمية الثانية.



□ توماس مان بصحبة ابنه كلاوس وابنته.

(Mussolini) على منواله في إيطاليا. وطبق هتلر (Hitler) في المانيا هذه الفكرة أيضاً، وفي نفس الوقت وعد الشعب الالماني بسيارة رجل الشارع، وهي سيارة الفولكسواجن (Volkswagen) التي سارت فيما بعد، أي خلال الحرب العالمية الثانية، عبر شوارع روسيا وافريقيا، وفرنسا. ولم يكن هتلر يعي نفسه مهندساً معمارياً كبيراً، وقائداً حربياً لكل العصور فحسب، بل كقائد سيارة راند. ومن المشاهد التي لا ينساها الجيل القديم تلك التي تمثل هتلر واقفاً في سيارته المكشوفة من نوع المرسيدس، رافعاً يده «بالتحية الالمانية»، ماراً أمام الجماهير المحتفلة به. ان التشابك بين رأس المال وسلطة الدولة النازية في ذلك الوقت أصبح أمراً واضحاً للعيان.

في سنة ١٩٤٦، أي بعد الهزيمة التامة لالمانيا، تراجع عدد السيارات من ٨٠٠ ألف سيارة إلى ١٩٠ ألف تقريباً. لكن من تحت أنقاض الحرب ودمارها انبثقت المعجزة الاقتصادية الشهيرة. وفي سنة ١٩٥٣ بلغ عدد السيارات في جمهورية المانيا الاتحادية مليوناً. وأصبحت سيارة فولكسواجن الصغيرة (Käfer) السيارة الأكثر رواجا داخل البلاد وخارجها. وقد أقدمت طبقات الشعب على شراء هذه السيارة التي سيطرت في الخمسينات على الصورة العامة لحركة المرور. وهكذا بدأ العصر الذهبي للسيارة.

في السنوات الأولى التي تلت الحرب لم يتنبأ أي خبير بأن تصبح صناعة السيارة عاملاً هاماً من عوامل الانعاش الاقتصادي. لكن في بلد هدمته الحرب، ودمرت مدنه القنابل، انفجر الشعور بإرادة البقاء، وانزاحت الأوهام بوقع الهزيمة.

بدأ ترويج السيارة في أوساط عامة الشعب في بداية الأمر بصفة متواضعة، وذلك بضع سيارات صغيرة الحجم كالسيارات بثلاث عجلات من صنع معمل مستر شميت (Messerschmitt) أو كسيارات الجوجوموبيل (Goggomobil) أو كسيارات الايزيتا (Isetta) وهي من إنتاج مصانع (BMW)، التي صارت السيارة الصغيرة الأكثر شعبية خلال الخمسينات. ويفسر أولريخ كوبيش (Ulrikhubisch) هذه الظاهرة في كتابه «من الدراجة المتحضرة إلى مرحلة ما شبه السيارة»

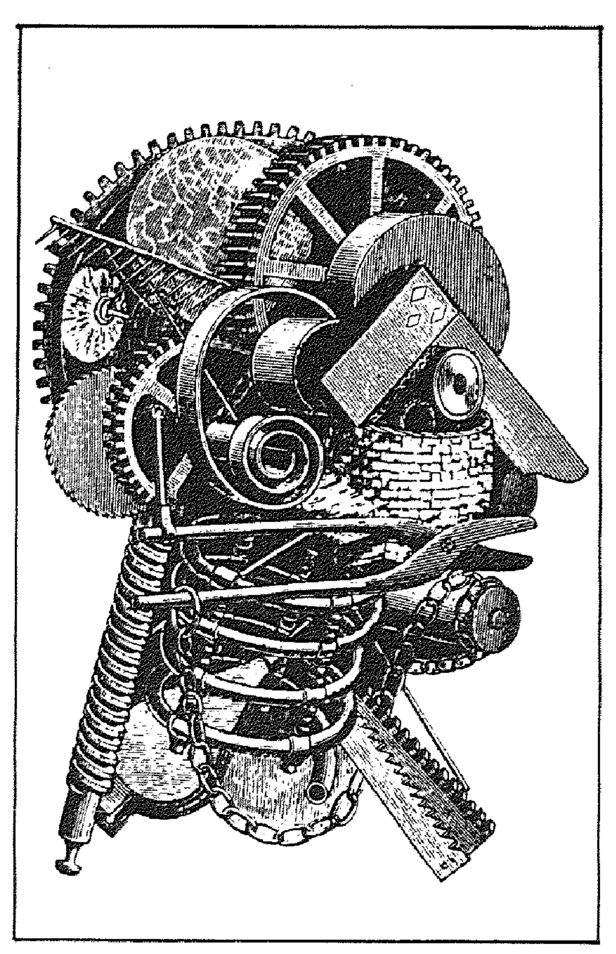
يلي: «ان البلد دمّرته القنابل، وزوال ذلك الوهم الذي أدّى إلى حالة اللاوعي الجماعية، من أذهان الالمان المتحررين من الفاشية الهتلرية، وإرادة الحياة التي انفجرت بعد ست سنوات من الحرب، كل هذا ساهم في تحقيق الحلم المتمثل في حشد طاقات الجماهير الشعبية». ومثلما أزيح الماضي المظلم، أزيحت السيارة الفخمة المستعملة للتباهي والترف، ولم تعد السيارة شيئاً يعبد ويقدّس، بل تحولت إلى وسيلة لها قوة سحرية مطلقة وتهدف إلى توفير حياة أكثر جمالاً ورقياً وكمالاً.

نجد اليوم في العالم ما يقارب ٢٤٠ مليون سيارة ركاب وخمسة ملايين حافلة. ان التطور السريع لوسائل النقل المزودة بالمحركات جعل من صناعة السيارات فرعاً هاماً من فروع الحياة الاقتصادية في أوروبا. ففي جمهورية المانيا الاتحادية توفر صناعة السيارات مواطن شغل لسُبع العمال، بالإضافة إلى ذلك هناك مليونان ونصف تقريباً يعبدون الطرقات ويرقمونها، وينظمون حركة المرور، ويزودون سائقي السيارات بالوقود من محطات الاستراحة. وتنتج المعامل الالمانية للسيارات سنوياً مواداً تقدر بـ ٦٥ بليون مارك. وهذا يدل دلالة قاطعة على أن هذا قطاع هام جداً في الحياة الاقتصادية. وقد ساهم إجمالاً في زيادة نمو الاقتصاد الالماني.

خلال سنة ١٩٨٤ قدّرت الضرائب العائدة إلى قطاع صناعة السيارات في المانيا الاتحادية ما يقارب الربع من جملة ٤١٥ مارك. إلى جانب ذلك تعدّ صناعة السيارات من أكبر فروع التصدير أو انها حققت على مستوى المعاملات التجارية فائضاً يقدّر بسبعين بليون مارك تقريباً، وهو مبلغ قد يكون كافياً لتغطية مصاريف النفط بالنسبة لجمهورية المانيا الاتحادية.

لقد غيّرت السيارة العالم. وبفضلها توصل الإنسان إلى أن يكون أكثر حرية، وأن يوفر لنفسه أشياء كثيرة كان محروماً منها قبل ذلك.

وفي كل سنة يندفع الالمان بسياراتهم في الأوتوسترادات المكتظة باتجاه الجنوب حاملين كل ما يحتاجونه لقضاء أيام العطلة على شاطىء البحر، أو في جزيرة أو فوق قمم الجبال. لقد



□ اندري بويي: المخترع (١٨٩٠).

قصرت المسافاة، وأصبحت الرحلات القسيرة خارج البلاد والتي يمكن أن تدوم يومين أو ثلاثة أمراً عادياً جداً.

من الواضح إذن، أن ينعكس مثل هذا التغيير الجذري للمحيط الذي أحدثته السيارة، على الأدب والفن عموماً. ولقد اهتم فن الكاريكاتور خاصة بهذه العربة الجديدة. وهو تارة يمجدها ويثني على فضائلها، وتارة أخرى يسخر منها ويلعنها. رسم فنانو مطلع القرن العشرين السيارة، وقدموها في أشكال مختلفة ومتعددة، واعتبروها رمزاً للعصر الحديث، عصر السرعة والتكنولوجيا. وهناك العديد من الأدباء والكتاب تحدثوا أيضاً عن السيارة. ويمكن أن نذكر من بينهم هرمان بروخ (Hermann Broch) وذلك في كتابه «آش والفوضي»: «كانت هذه الرحلة بالسيارة أول رحلة قام بها السيد «آش». وكانت رحلة رائعة جداً»، وهاينريش بل (H. Böll) الذي كتب في إحدى قصصه يقول: «احترس.. لا تخدش بحذائك طلاء السيارة»، وأيضاً مارتن

فالسر (M. Walser)، وبيتر شنايدر (P. Schnelder) وهرمان هسه وغيرهم كثيرون.

كما استهوت السيارة فن التصوير الفوتوغرافي. وكلما أقيم معرض في هذا الشأن، تسابق الناس لمشاهدته.

غير أننا لا بد أن نلاحظ أن السيارة برغم إيجابياتها الكثيرة التي ذكرناها آنفاً هي أداة من أدوات الموت الرهيبة. ان ضحاياها في العالم منذ ظهورها إلى اليوم يعدّون بالملايين. في المانيا وحدها هناك منذ ١٩٥٣ وإلى حدّ الآن أكثر من نصف مليون شخص لقوا حتفهم، وأكثر من ١٤،٥ مليون أصيبوا بجراح متفاوتة الخطورة. وهذا ما جعل البعض يتحدث عن «الحرب على الطرقات». بالإضافة إلى ذلك هناك حوالي ٨٠٠ من رجال القضاء يهتمون بالقضايا المتعلقة بالسيارات وحركة المرور.

ويمكن أن نقول ان السيارة شوهت الطبيعة، وأثرت تأثيراً سلبياً على المحيط وعلى الغابات وعلى الهواء خاصة داخل المدن الكبيرة والمكتظة. وبهدف بناء الطرقات أو توسيعها تم تهديم الكثير من البنايات، وتشويه العديد من الأحياء الأصيلة والتقليدية.

والآن يحدث شيء مغاير تماماً لما وقع خلال القرن التاسع عشر والسبعين سنة الأولى من القرن العشرين. ان الناس أصبحوا يهربون من المدن، ويستنكفون من السكن فيها بسبب التعفن الناتج عن المعامل والسيارات. كما ان المشرفين على شؤون المدن أصبحوا يهتمون أكثر من قبل بالحدائق داخل المدن، وبالمحافظة على الآثار وعلى الأحياء والبنايات التقليدية، بل ان البعض منهم أصدر تعليمات تقضي بمنع السيارات من الدخول إلى بعض الأحياء والساحات.

وإجمالاً يمكن القول ان الناس، بالرغم من أخطار السيارة الكثيرة والقاتلة في أغلب الأحيان، لا يزالون مبهورين بها، بل ويعتبرونها أساسية في الحياة المعاصرة. شاهدة على ذلك المعارض الضخمة التي تقيمها من حين لآخر بعض الشركات الكبرى المنتجة أو المروجة للسيارات، والتي يأتيها الملايين من الزائرين. ذلك ان السيارة هي دون منازع رمز الحضارة اليوم.

يقول المفكر الفرنسي روبلان بارت (R. Barthes): «أعتقد أن السيارة هي اليوم، المعادل الصحيح للكاتدرائيات القوطية الكبيرة. أعني بذلك أنها ابتكار هام، صممها بشغف فنانون مجهولون، وهي مستهلكة في صورتها إن لم تكن في استعمالها من طرف شعب بأسره يتملك من خلالها أداة سحرية تماماً». ويرى فولفجانج ساخس (Wolfgang Sachs) الذي كان قد اشتغل في مجموعة مشاريع تهم الطاقة والاقتصاد، ان المشروع التقني لصنع السيارات يقوم على تخطيط حضاري. وقد تنعكس رغبات المجتمع على تخطيطات المهندسين، سواء كانت هذه الرغبات موجهة إلى حب الله أو إلى السرعة.

ليس بغريب إذن أن يخص الشعب الالماني السيارة بتقديس جنوني يتجلى غالباً في رغبة ملحة ومفرطة في تنظيفها. ومن عادات الموطن الالماني في عطلة نهاية الأسبوع أن يهتم بسيارته اهتمامه بشيء ثمين وعزيز على نفسه. ذلك أن السيارة تخلق بالفعل لدى صاحبها أحاسيس لا يعيشها خلال حياته اليومية وهي تظهر خاصة في حب السرعة المرتبط بالشعور بالسلطة وبالقوة، وفي حب المنافسة والرغبة في التفوق على السائقين الآخرين، وفي تلك النشوة التي تجعل صاحب السيارة يحس أنه يتحكم في شيء ما، ويستعمله كما يشتهي ويريد. وهناك العديد من أصحاب السيارات يمضون وقتاً طويلاً في الحديث عن مزايا سياراتهم. منذ خمسين سنة كتب سيجفريد كراكاور (Siegfried Kracauer) يقول: «نحن كالأطفال نفرح بهذه السرعة الجديدة. ونحن نشبه في ذلك المغامر الاسباني الذي غزا امريكا غير أنه لم يجد الوقت الكافي للاستمتاع بمغزى اكتسابه لها».

اين نسير؟ من المؤكد ان السيارة ستصبح في المستقبل أكثر قيمة وأكثر ملائمة لمتطلبات البيئة.





كتابه صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار واليهود وهو دستور الدولة البلدية بالمدينة

شذا عدرة

يقول البعض عنها «أنها الذاكرة الحيَّة للوطن وللتاريخ والبعض الآخر يقدِّر أن لها أهمية فريدة في الكشف عن حقيقة الماضي، الذي لا يمكن معرفته إلّا من خلالها»[1] هذه هي الوثيقة التي تشكل تسجيلاً حياً لجميع المراحل التاريخية لأية دولة بكامل أشكالها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والفنية والعلمية.

ولمَّا كان المسلمون قد أُمروا أن يكتبوا جميع ما فيه من حقوق العباد، «ذلك أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا» ومن ثم فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد كتب جميع المحالفات والمعاهدات مع القبائل والملوك سوى ما كتب إليهم في المراسلات، فإن جميع تلك «الكتابات» ما هي إلَّا وثائق رسمية نفهم من خلالها ما كان سائداً في تلك الآونة من أحوال سياسية وغير سياسية؛ خاصة وان الرسول الكريم كان قد جمع القوى المنتشرة في جزيرة العرب على مركز واحد تشكّلت على أثره دولة ذات نظام وسيادة، وقد قامت بينها وبين الممالك المجاورة علاقات سياسية استدعت إلى كتابة «كتب» تترجم تلك العلاقات.

ومجلة «تاريخ العرب والعالم» إدراكاً منها لأهمية تلك «الكتابات ــ الوثائق» تحاول أن تلقي الأضواء على بعض مراحل العهد النبوي من خلال نشرها، وتباعاً، بعض تلك العهود التي وردت في كتاب:

«مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة»، للدكتور محمد حميد الله[2] الذي ننشر له رموز الاختصارات التي استعملها في أوائل الوثائق لتمكين القارىء من العودة إلى المراجع الأصلية.

الوثيقة الأولى: كتابه صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار واليهود وهو دستور الدولة البلدية.

---

(١) د. قبيسي، محمد: **حضارة العرب في حفظ وثائقهم**، منشورات دار الآفاق الجديدة (بيروت ــ ١٩٧٩) ص ٩٠.

(٢) د. حميد الله، محمد: **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة**، دار الإرشاد ــ الطبعة الثانية (بيروت ــ ١٩٦٩).



مراجع النص الكامل: بهـ ص٣٤١-٣٤٤-بآ ورقة١٠١ – بع ع١٧٤ ٥ – ابن زنجويه، كتاب الأموال(خطية بوردور، تركيا)، عن الزهري، ورقة ٧٠ب – ٧١ ب – عمر الموصلي، وسيلة المتعبدين، ج٨، ورقة ٣٢ ب – بسن، عن ابن إسحاق وابن أبي خيثمة ١٩٨/١ –بلك ٢٢٤/٣ – ٢٢٦– عمخ ع ٧٩ .

راجع للتراجم :

(أردو): محمد حميد الله، دنيا كا سب سي پهلا تحريري دستور (مجلة طيلسانيين حيدر آباد دكن، جولائي١٩٣٩؛ أيضاً عهد نبوي كا نظام‌حكمراني، طبعة ثانية ١٩٤٨ حيدر آباد دكن، باب٣، ص ٧٦-١١١ خاصة ص ١٠٢-١١١) .

(تركية القديمة): حسين جاهد(يالجين)، إسلام تاريخي(ترجمة « أنالي ديل إسلام بالطليانية لكايتاني) استانبول١٩٢٤، ج٣، ص ١٤٦ وما بعدها .

(Français): M. Hamidullah, *Corpus des documents sur la diplomate musulmane*, N° 1 ; *Le Prophète de l'Islam*, I, 123 et suiv., en particulier 133-137.

(English) : M. Hamidullah, *The First Written-Constitution of the World*. in ; Islamic Review, Working, August to November 1941, p. 296-303, 334-340, 377-384, 442-449 — Reuben Levy, *Sociology of Islam*, I. 279-282; the same. *The Social Structure of Islam*, 1957, p. 273-275 — Majid Khaddûri, *The Low of War and Peace in Islam*. p. 84-87; the same, *War and Peace in the Law of Islam*, 1955, p. 206-209.

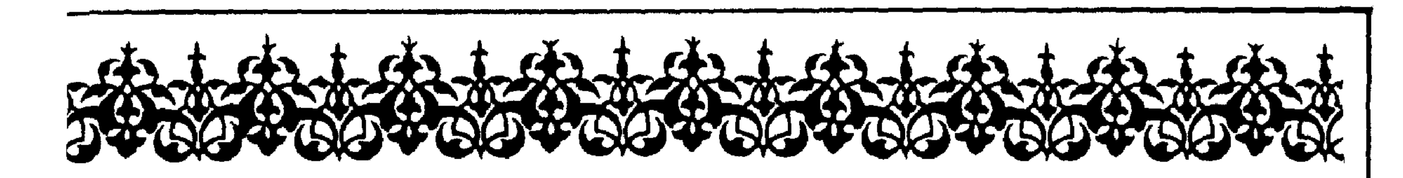
(Deutsch): Wellhusen, *Gemeindeordnung von Medina*, in: Skizzen und Vorarbeiten, IV. 76-83 — Buhl, *Das Leben Muhammeds*. p. 210-212.

(Hollândisch) : Wensinck, *Mohammed en de Joden te Medina*, 1908, p. 78ff.

(Italiana): L. Caetani, *Annali dell'Islam*, I. anno 1, § 43ff.

(Turkçe): Sâlih Tug. (Hamidullah, *Islâmin hukuk ilmine yardimlari*, çec. sâlih Tug). 1962, p. 13-30.

قابل للاقتباسات: عبد الرزاق بن همام(المتوفى ٢١١هـ) كتاب المصنف(خطية) كتاب العقول– أبو عبيد القاسم بن سلام (ف٢٢٣) غريب الحديث(خطية) كلمة مفرح وقصاص– ابن سعد (ف٢٣٠) الطبقات، ٢/١، ص ١٧٢ سطر ١٠/١٣ ؛ ١/٢، ص١٩، ٢٣ – ابن حنبل(ف ٢٤١) المسند ٧٩/١، ١١٩، ١٢٢، ٢٧١ ، ١٧٨/٢ ، ١٨٠ ، ١٩٤، ٢٠٤، ٢١١، ٢١٥ ؛ ٢٢١/٣ ، ٢٤٢، ٢٤٩ ، ٣٢١، ٣٤٢؛ ١٤١/٤ – ابن زنجويه (ف ٢٥١) كتاب



الأموال (خطية بوردور، تركيا)، ورقة ٤٤ ب، ٤٥ ب، ٥٦ ألف، ب — الدارمي (ف ٢٥٥) السنن، ٥/١٥ — البخاري (ف ٢٥٦) الصحيح، ٣/٩٤ رقم١ ؛ ١٠/٥٨ ؛ ١٧/٥٨ رقم ٢؛ ٦/٩٦ رقم٢ وفي كلها اقتباسات هذا الكتاب؛ ١٧/٩٦ رقم١٨ وفيها ذكر تدوينه في بيت أنس — مسلم (ف ٢٦١)، الصحيح، ١٧/٢٠ رقم ١٢٧٠ ، ١٥٠٧؛ ٥٠/٤٤ رقم٢٠٤، ٢٠٥ — ابن ماجه(ف ٢٧٣) السنن ٢١/٢١ — أبو داود (ف ٢٧٥) السنن، ٩٩/١١، ٢٢/١٩-٢٣، ١١/٣٨ — البلاذري (ف ٢٧٧) أنساب الأشراف١/٢٨٦ ، ٣٠٨— الترمذي (ف ٢٧٩) السنن، ١٦/١٤ — النسائي(ف ٣٠٣) السنن٤٥/٤١ — الطبري (ف ؛ ٣١) تأريخ، سلسلة أولى ص١٣٦٧ سطر١٣-١٤، ص ١٣٥٩ سطر١٠-١٢ — مطهّر بن طاهر (تأليف ٣٥٥)البدء والتاريخ٤/١٧٩—الخطيب البغدادي(ف ٤٦٣)تقييد العلم ص ٧٢ — ابن منظور (ف٧١١)، لسان العرب، مادة برر، دسع، عقب ، عقل، فرح، وتغ — المقريزي(ف ٨٤٥) إمتاع الأسماع ١/٤٩، ١٠٤، ١٠٧ وقال: كانت معلقة بسيفه صلى الله عليه وسلم . ثم في القسم الغير المطبوع منه خطية كوپرولو، ص ١٠٣٥-١٠٣٦—الزرقاني (ف ١١٢٠) شرح المواهب اللدنية للقسطلاني، المتوفى٩٢٣، ٤/١٦٨-١٦٩ .

انظر البحوث سوى ما ورد في ذكر تراجم هذه الوثيقة :

(بالعربية): محمد حميد الله، أقدم دستور مسجل في العالم(في مباحث مؤتمر دائرة المعارف بحيدرآباد الدكن ١٩٣٨م) ص٩٧-١٢٤— يوسف العش، سقوط الدولة العربية (ترجمة من ألمانية لويلهاوزن) .

(أردو) مقالة طويلة في مجلة برهان، دهلي ، من أكتوبر ١٩٣٩إلى سبتمبر ١٩٤٠

(English): M. Hamidullah, *Administration of Justice in Early Islam*, in Islamic Culture, Hyderabad-Deccan 1937, XI, 164-5 — Joseph Hell, *The Arab Civilization*, trans. by Khuda Bakhush Khan. 2nd ed., II 25 f. — Sarjeant *The Constitution of Medina*, in : Islamic Quarterly, Lonond, VIII/1-2, p. 3-16 — in an article in the monthly Voice of Islam, Karachi, 1052, I, 105.

(Deutsch): Alois Sprenger. *Das Leben und die Lehre des Muhammed*, 2nd ed. 1869, III, 20-30 — Hubert Grimme, *Muhammed*, I, 75-81 — A Müller, *Der Islam in Morgen — und Abendland*, I. 98 — Joseph Hell siehe auf English — Ludolf Krehl. *Leben Muhammeds*, p. 142-8 — Bebel, *Muhammedanische arabische Kulturperiode*, Kap. 1, 2 — Ranke, *Weltgeschichte*, V. 75ff — Wellhausen. *Das arabische Reich und sein Sturz*, p. 4-10. (Français) : M. Hamidullah, *Documents sur la diplomatie musulmane*, Paris 1935, I. 20-26.

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) هذا كتاب من محمد النبي [رسول الله] بين المؤمنين المسلمين
٣ من قريش و [أهل] يثرب ومَن تبِعهم فلحِق بهم وجاهد معهم .

(٢) أنهم أمّة واحدة مِن دون الناس .

(٣) المهاجرون من قريش على رَبعتهم يتعاقلون بينهم وهم
٦ يَفدُون عانيَهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(٤) وبنو عَوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلَهم الأولى ، وكل طائفة تَفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٩ (٥) وبنو الحارث [بن الخزرَج] على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(٦) وبنو ساعِدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل
١٢ طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(٧) وبنو جُشَم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

١٥ (٨) وبنو النّجّار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(٩) وبنو عَمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ،
١٨ وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(١٠) وبنو النّبِيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٢١ (١١) وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(١٢) وأنّ المؤمنين لا يتركون مُفرَحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف
٢٤ في فداء أو عقل .

(١٢ ب) وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .
(١٣) وأن المؤمنين المتقين [أيديهم] على [كل] مَن بغى منهم ، أو ابتغى دَسيعةَ ظلمٍ ، أو إثماً ، أو عدواناً ، أو فساداً بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولدَ أحدهم . ٢٧
(١٤) ولا يَقْتُل مؤمنٌ مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن . ٣٠
(١٥) وأنّ ذمّة الله واحدة يجير عليهم أدناهم . وأنّ المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس .
(١٦) وأنه مَن تبعنا من يهود فإنّ له النصرَ والأسوةَ غير مظلومين ولا مُتناصر عليهم . ٣٣
(١٧) وأنّ سِلم المؤمنين واحدةٌ ، لا يُسالِم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله . إلا على سواء وعدل بينهم . ٣٦
(١٨) وأنّ كل غازية غَزَت معنا يعقب بعضها بعضاً .
(١٩) وأن المؤمنين يُبيء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله . ٣٩
(٢٠) وأن المؤمنين المتقين على أحسن هُدًى وأقومه .
(٢٠ ب) وأنه لا يجير مشركٌ مالاً لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن . ٤٢
(٢١) وأنه مَن اعتَبط مؤمناً قتلا عن بيّنة فإنه قَوَدٌ به ، إلا أن يَرضى ولي المقتول [بالعقل] ، وأنّ المؤمنين عليه كافةً ولا يحلُ لهم إلا قيام عليه . ٤٥
(٢٢) وأنه لا يحل لمؤمن أقرَّ بما في هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحدِثاً أو يُؤويه . وأن من نصره ، أو آواه . فإنّ عليه لعنةَ الله وغضبَه يوم القيامة ، ولا يُؤخذ منه صرف ولا عدل . ٤٨
(٢٣) وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء . فإنّ مردّه إلى الله وإلى محمد .

(٢٤) وأنّ اليهود يُنفقون مع المؤمنين ما داموا مُحاربين .

(٢٥) وأنّ يهود بني عوف أُمّـــة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مَواليهم وأنفسهم إلا مَن ظَلَم وأثم . فإنه لا يُوتِـــغ إلا نفسه وأهلَ بيته .

(٢٦) وأنّ ليهود بني النّجّار مثل ما ليهود بني عوف .

(٢٧) وأنّ ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف .

(٢٨) وأنّ ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف .

(٢٩) وأنّ ليهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عوف.

(٣٠) وأنّ ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف .

(٣١) وأنّ ليهود بني ثَعلَبة مثل ما ليهود بني عوف ، إلا مَن ظلم وأثم ، فإنّه لا يُوتِـــغ إلا نفسَه وأهلَ بيته .

(٣٢) وأنّ جَفْنَةَ بطنٌ مِن ثعلبة كأنفسهم .

(٣٣) وأنّ لبني الشُّطَيبَة مثل ما ليهود بني عوف . وأنّ البرَّ دون الإثم .

(٣٤) وأنّ موالي ثعلبة كأنفسهم .

(٣٥) وأنّ بطانة يهود كأنفسهم .

(٣٦) وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد .

(٣٦ ب) وأنه لا يَنْحَجِز على ثأرِ جُرحٍ ، وأنه مَن فتَك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا مَن ظَلم وأنّ الله على أبَرِّ هذا .

(٣٧) وأنّ على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأنّ بينهم النصر على مَن حاربَ أهل هذه الصحيفة ، وأنّ بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم .

(٣٧ ب) وأنه لا يأثم امرؤٌ بحليفه ، وأنّ النصر للمظلوم .

(٣٨) وأنّ اليهود يُنفِقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

(٣٩) وأنّ يَثربَ حرامٌ جوفُها لأهل هذه الصحيفة .

٧٥ (٤٠) وأنّ الجار كالنفس غير مُضارٍّ ولا آثم .

(٤١) وأنه لا تُجار حرمةٌ إلا بإذن أهلها .

(٤٢) وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة مِن حَدث ، أو اشتجار يُخاف فساده ، فإنّ مَرَدَّه إلى الله وإلى محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وأنّ الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبَرِّه . ٧٨

(٤٣) وأنه لا تُجار قريشٌ ولا مَن نَصَرها .

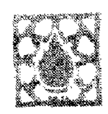
٨١ (٤٤) وأنّ بينهم النصر على مَن دهم يثرب .

(٤٥) وإذا دُعوا إلى صلح يُصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وأنهم إذا دَعوا إلى مثل ذلك ، فإنه لهم على المؤمنين إلا مَن حاربَ في الدين . ٨٤

(٤٥ ب) على كل أناس حِصّتهم مِن جانبهم الذي قِبَلهم .

(٤٦) وأنّ يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البرِّ المحض مِن أهل هذه الصحيفة . وأنّ البرَّ دون الإثم لا يَكسِب كاسب إلا على نفسه . وأنّ الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبَرِّه . ٨٧

٩٠ (٤٧) وأنه لا يحول هذا الكتابُ دون ظالمٍ أو آثم ، وأنه مَن خرجَ آمِنٌ ومن قعد آمِنٌ بالمدينة ، إلا مَن ظلم وأثم ، وأنّ الله جارٌ لمن بَرَّ واتّقى ، ومحمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .



الهوامش

سطر (١) زنجويه : ... (ولعل معه حق لتأخر نزول « بسم الله الرحمن الرحيم ») .

(٢) بع ، زنجويه: + [رسول الله] .

(٣) بع ، زنجويه : + [أهل] - + فحل معهم وجاهد ...

(٤) بع : واحدة دون الناس .

(٥) بع ، زنجويه : رباعتهم (وفي رواية : ربعاتهم) بينهم معاقلهم الأولى وهم - زنجويه في رواية : وهم يفكون .

(٦) بع : المؤمنين والمسلمين .

(٧ - ٢١) بع : على باعتهم - طائفة منهم تفدى

(٩ - ٢١) زنجويه : طائفة منهم تفدى

(٩) بع : + [ ] - زنجويه : بنو الخزرج .

(٢٣) به في نسخة : مفرجا - زنجويه في رواية:مفدوحا - (بع ، زنجويه : مفرحا منهم أن يعينوه) .

(٢٥) بع : ... [قابل مسلم رقم ١٥٠٧ ، و بحن ج ٣ ص ٣٤٢ : عن جابر كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم على كل بطن عقولهم ثم كتب أنه لا يحل أن يتولى مولى رجل مسلم بغير إذنه (أو : إذن وليه)] .

(٢٦) بع : + [] - [] - بع : من بغى وابتغى منهم - زنجويه : يد على من بغى

(٢٧) إثما : كذا في بآ ، وفي به وبع وزنجويه : إثم أو عدوان أو فساد .

(٢٨) بع ، زنجويه : عليه جميعه .

(٢٩) بع ، زنجويه : لا يقتل - زنجويه : ولا ينصر كافر .

(٣١-٣٢) بع ، زنجويه : ...والمؤمنون بعضهم .

(٣٣) بع ، زنجويه : من اليهود فإن له المعروف والأسوة .

(٣٥) بع ، زنجويه : واحد ولا يسالم .

(٣٧) بع ، زنجويه : غزت ... يعقب بعضهم .

(٣٨-٣٩) بع ، زنجويه : ...

(٤٠) بع : أحسن هذا وأقومه .

(٤١-٤٢) بع ، زنجويه : لقريش ولا يعينها على مؤمن .

(٤٣) بع ، زنجويه : قتلا فإنه قود إلا -

(٤٤-٤٥) بع ، زنجويه : + [] - كافة ...

(٤٧) أو يؤويه : كذا في بع ، وفي به وزنجويه : ولا يؤويه - بع ، زنجويه : فمن نصره .

(٤٨) بع : إلى يوم القيامة لا يؤخذ - زنجويه : لا يقبل منه .

(٤٩) بع ، زنجويه : ما اختلفتم - فإن حكمه إلى الله (تبارك وتعالى) وإلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

(٥١) بع : عوف ومواليهم وأنفسهم أمة من المؤمنين - زنجويه : عوف أمة من

(٥٢) زنجويه : والمؤمنين -

(٥٢-٥٣) بع : وللمؤمنين دينهم إلا من ظلم وأثم .

(٥٦-٥٧) بع، زنجويه : ٥٦ - ٥٧ (مع تقديم وتأخير) .

(٥٨) بع : ليهود الأوس - زنجويه : ليهود الأوس مثل ذلك ...

(٥٩-٦٠) بع، زنجويه : ... إلا من ظلم ... (ولكن راجع حاشية المادة ٤٦ أدناه).

(٦١-٦٥) بع ، زنجويه : ...

(٦٦) بع ، زنجويه : أحد منهم .

(٦٧-٦٨) بع ، زنجويه : ...

(٦٩-٧٠) بع : ... وأن بينهم النصر - زنجويه : ... على اليهود .

(٧٠-٧١-٧٢) بع : بينهم النصيحة والنصر للمظلوم-زنجويه : والنصيحة والنصر للمظلوم

(٧٣) بع ، زنجويه : ... (راجع أيضاً المادة ٢٤، ٣٧) .

(٧٤) بع، زنجويه : وأن المدينة جوفها حرم لأهل .

(٧٥-٧٦) بع، زنجويه : ...

(٧٧-٧٨) بع : من حدث ... يخاف .

(٧٨-٧٩) بع ، زنجويه : فإن أمره إلى الله وإلى محمد النبي ...

(٨٠) زنجويه ، بع : ...

(٨٢-٨٣-٨٤) بع :وإنهم إذا دعوا إلى صلح حليف لهم فإنهم يصالحونه وإن دعونا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين ، إلا من حارب الدين - زنجويه : وإنهم إذا دعوا اليهود إلى صلح حليف لهم بالأسوة فإنهم يصالحونه وإن دعونا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب الدين .

(٨٥) بع، زنجويه : وعلى كل أناس حصتهم من النفقة ...

(٨٦-٨٨) بع، زنجويه : الأوس ومواليهم وأنفسهم مع البر المحسن من أهل هذه الصحيفة وإن بني الشطيبة بطن من جفنة وإن البر دون الإثم فلا يكسب . (إلا أنه عند زنجويه : بني الشطبة مثل جفنة - ولا يكسب) - به : مع البر المحسن .

(٩٠) بع ، زنجويه : ... لا يحول الكتاب دون ظالم ولا آثم .

(٩١-٩٢) بع ، زنجويه : آمن إلا من ظلم وأثم . وإن أولاهم بهذه الصحيفة البر المحسن .

حل رموز الاختصارات

المستعملة في أوائل الوثائق

ألف ... طرف الوجه من ورقة المخطوطة
ب ... طرف الظهر من ورقة المخطوطة
بآ ...سيرة ابن اسحاق(ترجمتهاالفارسية)
بث ... أسد الغابة لابن الأثير
بح ... الإصابة لابن حجر
بحز ... ابن حزم
بحن ... مسند أحمد بن حنبل
بد ... سنن أبي داود
بس ... طبقات ابن سعد
بسن ... سيرة ابن سيد الناس
بط ... إعلام السائلين لابن طولون
بع ... أبو عبيد
بعب ... الاستيعاب لابن عبد البر
بعح ... ابن عبد الحكم
بعر ... ابن عبد ربه
بق ... زاد المعاد لابن القيم
بك ... ابن كثير
بلا ... فتوح البلدان للبلاذري
به ... سيرة ابن هشام
بيو ... الخراج لأبي يوسف
ديب ... الديبلي
طب ... تاريخ الطبري
عمخ ... عبد المنعم خان

قس ... القسطلاني
قلقش ... القلقشندي
ج ... الجزء أو المجلد
س ... سطر
ص ... الصفحة
ع ... عدد أو رقم والمراد به عند ذكر طبقات ابن سعد مثلا رقيم ويلهاوزن في طبعه نخباً من هذا الكتاب وأشرنا سوى هذا إلى عدد الجزء والصفحة من الطبعة اللايدنية . أو رقم الفصل في كتاب (الأموال) ، أو رقم الحديث في كنز العمال وغير ذلك
ف ... الفقرة والفصل
+ [] ... علامة الإضافة والمضاف
... ... علامة الحذف في بيان اختلاف الرواية
— ... علامة الاستمرار أو التكرار في الروايتين
قابل ... يشير إلى الروايات غير الكاملة من الوثائق أو الاقتباسات
انظر ... يشير إلى البحوث الحديثة



● من أوائل خطب الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، بعد توليه الخلافة:

«إن الله ابتلاكم بي، وابتلاني بكم، وأبقاني فيكم بعد صاحبيّ، فلا والله لا يحضرني شيء من أمركم فيليه أحد دوني، ولا يتغيب عني فآلو — أي أقصّر — فيه عن أهل الصدق والأمانة، ولئن أحسنوا لأحسنن إليهم، ولئن أساءوا لأنكلنّ بهم».

«لا تنظروا إلى صيام أحد ولا إلى صلاته، ولكن انظروا من إذا حدّث صدق، وإذا ائتمن أدى، وإذا أشفى — أي همّ بالمعصية — ورع».

(الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه)

بطليموس الثالث

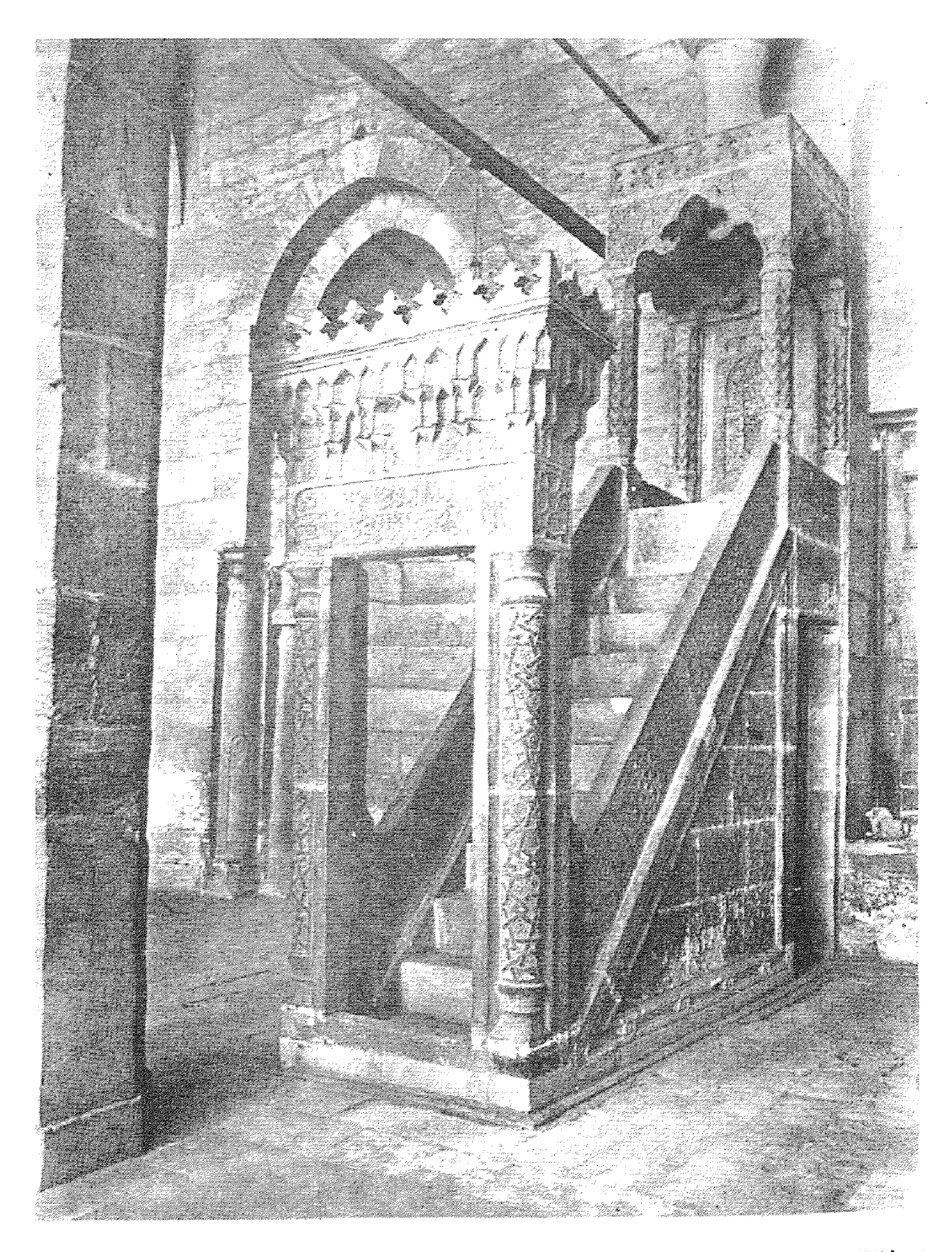
لو أردنا تشبيه بطليموس الثالث «أورغيتيس» بواحد من الملوك القادة الذين فتحوا الدنيا شرقاً وغرباً، لبرز لنا على الفور اسم الإسكندر الكبير المقدوني، فإن بين الاسمين شبهاً عظيماً، كما سنرى، ولعل الاختلاف الوحيد يكمن في السن التي أتى كل منهما أعماله العظيمة فيها..

فعندما تولى بطليموس الثالث عشر مصر، كان في منتصف العقد الثالث من عمره، ولم يكن ذاك العرش الذي يتبوؤه جديراً بأن يحسد عليه إذ كان والده وسلفه «بطليموس الثاني» قد وسع رقعة المملكة المصرية بصورة أصبح من المتعذر معها ضبط أمورها والقبض على ناصيتها، وهكذا وجد المتآمرون من أعداء مصر المجال واسعاً رحباً ليدبروا مؤامراتهم كما يشاؤون وهم بنجوة من متناول يد الفراعنة، ولم يكن أحد من عارفي الملك الجديد يقدر أنه سينجح في مهمته الثقيلة التي لا تبدو فيها بارقة من الإغراء، أو دلالة على الأمل، ولكن ما أن تبوأ العرش وقبض بيده على الصولجان، حتى أصبح رجلاً غير الرجال، وأدهش العالم بأعماله التي أعادت إلى الأذهان العبقرية الأسطورية التي كانت للإسكندر الكبير المقدوني...

وجهز بطليموس الثالث جيشه، وانطلق به نحو فلسطين فثبت فيها أقدام مصر مجدداً ثم احتل سورية واتجه إلى انطاكية — التي كانت قد بلغت من الاضطراب مبلغاً عظيماً — فأدبها، وسار بجيوشه إلى العراق وحط رحاله في «نينوى» مستعداً لمعركة عظيمة انتهت قبل أن تبدأ إذ خرج إليه أمراء العراق يؤكدون طاعتهم ويعلنون ولاءهم، فدخل بلادهم ومنها سار إلى «فارس» التي كانت دولة عظمى آنذاك، وبعد معارك ضارية استتب له الأمر، وقهر كسرى الفرس «أهريمان» ومن ثم اتجه إلى بلوجستان — التي كانت تعرف آنذاك بباكتريا — ولم تلبث رايته أن خفقت في أجوائها مظفرة، حتى وصل إلى بلاد السند فاحتلها وتوقف عند مشارف جبال الهندو كوش ليستجمع قواه تماماً كما فعل الإسكندر، ولكن أهل تلك البلاد، وقد تسامعوا بنبأ الفاتح المظفر، أعلنوه بالولاء وبعثوا إليه عدداً من نبلائهم كرهينة تؤكد ذلك الولاء...

وانه لفي ذلك إذا بالأخبار تترامى إليه عن ثورة شبت في برقة بتحريض من المقدونيين، فخشى استفحال أمرها، وامتدادها إلى بلاده نفسها، فقفل راجعاً إلى مصر ومنها إلى برقة فأخمد ثورتها، ثم عاد إلى بلاده من جديد، بعد أن اتسعت الامبراطورية المصرية في زمنه حتى امتدت إلى برقة وطرابلس والحبشة، وقبرص والشام وبعض بلاد الأناضول، واليونان، إلى جانب قسم كبير من مماليك ودول آسيا.

وقد تمسك الشعب المصري بهذه الانتصارات، وبلغ من الحماسة لمليكه القائد أن لقبه بالمحسن — أورغيتيس — وأقام له التماثيل والمسلات، وسجل أعماله على الحجر الذي يعرف اليوم في عالم الآثار بحجر «كانوب» وعن طريق هذا الحجر وصلت إلينا أخبار هذا العبقري، الذي أعاد سيرة الإسكندر، والذي سبق أساطين الحرب الحديثة في نوع القتال المسمى بالحرب الصاعقة...



□ خانقاه فرج بن برقوق ــ منبر حجري لقايتباي ٨٨٨هـ/١٤٨٣م.

من كتاب: التراث المعماري الإسلامي في مصر ــ د. صالح لمعي مصطفى.